

الإمام الغزالي

حجّة الإسلام

أبي حيدر محمد بن محمد بن محمد الغزالي

كما عرفته

الطبعة الأولى نوفمبر ٢٠١٢ م

رقم الإيداع: ١٩٧٩١ / ٢٠١٢

I.S.P.N: ٩٧٨ - ٩٧٧ - ٦٣٣٧ - ٩٩ - ٢

الغلاف: أسامه علام

تصحيح لغوي: محمود الغنام

جَمِيعُ حُقُوقِ الطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَحْفُوظَةٌ

© دار دَوْن

18 محي الدين أبو العز - الدقي - القاهرة

تليفون: 01020220053

www.facebook.com/DarDawen

E-mail: Info@dardawen.com

www.dardawen.com

الإمام الغزالي حجّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي كما عرفته

بحث مقدم إلى ملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر

محرم ١٤٠٨

تأليف

أ. د / عبد العظيم الديب

استاذ ورئيس قسم الفقه والأصول

جامعة قطر . سابقاً

(رحمته الله ويغفر له)



دار دَوْن للنشر والتوزيع

﴿أورع الناس وأتقاهم وأعلمهم من لا ينظر﴾
الناس كلهم إليه بعين واحدة، بل بعضهم بعين
الرضا، وبعضهم بعين السخط). ﴿﴾

أبو حامد الغزالي



تحية وتقدير

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فأحيي إدارة المنتدى والقائمين على أمره؛ لاختيارهم هذا الموضوع ليكون مجالاً للبحث في مؤتمر هذا العام، فنحن في حاجة حقاً إلى تلك الالتفاتة الواعية إلى الحياة الروحية في الإسلام، ذلك أن هناك أكثر من عامل صرفنا في هذه الأيام عن هذا الجانب الروحي.

فمن ذلك ما كان من أخطاء ارتكبت باسم التصوف، والتصوف منها براء، وما كان من وجود بعض المنحرفين المستغلين الذين انحرفوا بالتصوف عن مفهومه وهدفه، وأتخذوه وسيلة لأطماعهم، وتحقيق مآربهم، وعن طريقه حازوا الجاه، واكتنزوا الأموال، فاقتعدوا مقعد القيادة، بل والسيادة، وحكموا في الأتباع وتحكّموا، وفرضوا عليهم الجبايات، والمغانم، والأخطر من ذلك أنهم حالوا بينهم وبين المعرفة والاستنارة، كل ذلك بما أدخلته الطريقة على القلوب من فساد عقائد وعلى العقول من باطل وأوهام، وعلى الإسلام من زور وتحريف وتشويه، إلى ما صرفت من الأمة عن خالقها بما نصبت من

أَنْصَاب، وَشَتَّتْ مِنْ كَلِمَتِهَا بِمَا اخْتَلَقَتْ مِنْ أَلْقَاب، وَقَتَلَتْ عَزَّتْهَا بِمَا اصْطَنَعَتْ مِنْ إِرْهَاب.

وثاني هذه العوامل التي صرفتنا عن الجانب الروحي، هو ما تعانیه أمتنا الآن من عجز وتخلُّف، في مجال العلوم العصرية، وفي مضمار القوة المادية، وامتلاك أعدائنا (الصليبيين - الشيوعيين - والصهيونيين) لناصية القوة، والقدرة على القهر والاستبداد، مما جعلنا نتطلَّع إلى هذا الجانب المادي من الحياة، ونجري وراءه، ظانِّين أن تفوقنا في هذا الميدان هو وحده العلاج، وهو وحده السبيل، لكي تعود أمتنا إلى مكانها ومكانتها، من العزة والقيادة والريادة.

وليست هذه النظرة خاصة بالمهزومين المدحورين المبهورين بالحضارة الغربية، الذين يدعون إلى الأخذ بأسبابها، والنسج على منوالها، واقتفاء أثرها، فيما يُحمد منها وفيما يُعاب، وفيما يُمدح منها وفيما يُذم، بل إن دعاة الإسلام، العاملين على إعادة مجده، وإعلاء كلمته، وقعوا في شيء من هذا، حيث التفتوا - في كثير من الأحيان - إلى جانب واحد من الإسلام، فعكفوا على دراسته، واستخرجوا لنا من كنوز معارفه نظريات في السياسة، والتشريع، والاقتصاد، والتربية، وباهواً بها، وعارضوا قوانين الغرب، ونظرياته، وتشريعاته، وكل ذلك مقبول مشكور، ولكن أين الجانب الروحي؟

وثالث هذه العوامل التي صرفتنا عن الجانب الروحي، هو أنه يتعلق بالنفس وتهذيبها، وبالقلوب وتطهيرها، يتعلق بالعمل، يتعلق بالمعاناة في كف النفس وكبح جماح الشهوات، وإنكار الذات، والتطهّر من الكبرياء، والبُعد عن الغرور والخيلاء، وعدم الركون إلى الدنيا، وتذكر الوعد والوعيد في العقبى.

على حين تتعلق الجوانب المادية، بالفكر، والقلم، واللسان، فمن هنا خفت

مؤنتها، وسهلت ممارستها، وهي في الوقت نفسه تجلب لصاحبها الصيت والجاه والمال، وكل ما هو محبب تلتذذه النفس وتشتهيه.

كانت هذه العوامل وراء ما نعانيه الآن من جفافٍ روحي، وانصراف عن هذا الجانب الهام من جوانب الإسلام.

ومن هنا كان لابد من هذا اللقاء في هذا الملتقى الكريم حول هذا الموضوع (الحياة الروحية في الإسلام) عسى أن تتحقق الثمرة المرتقبة، في وضع معيارٍ للتوازن بين الجانبين، حتى لا ينسى المسلم المعاصر دوره في إعمار هذه الحياة، حيث استخلفه الله في الأرض، ولا ينسى في الوقت نفسه أن هذه الحياة بكل ما فيها، إنما هي بعد ذلك، وُصلةً ووسيلةً إلى الآخرة ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس: ٢٤)

والله الكريم أسأل أن يوفق إدارة الملتقى، والقائمين على أمره، وكل العاملين المخلصين.. إنه سميع مجيب.

كتبه

أبو محمود عبد العظيم الديب

الدوحة - ٢٥ شوال سنة ١٤٠٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وحده، لا شيء معه دائماً وأبداً..

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢). ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^{(٣) (٤)}.

اللهم إنا نبرأ إليك من حولنا وقوتنا، ونلوذ بحولك وقوتك سبحانه سبحانك، لا حول ولا قوة إلا بك، اللهم إنا نعوذ بك من الخطأ والخطل، والخلل والزلل، وسيئ القول والعمل، ونضرع إليك سبحانه أن تعيننا على

(١) آل عمران: ١٠٢.

(٢) النساء: ١.

(٣) الأحزاب: ٧٠، ٧١.

(٤) هذه تسمى خطبة الحاجة، وتشرع بين يدي كل خطبة، وهي من السنن النبوية التي نرجو أن نلتزم بها إحياء لما تناساه الناس من السنن. (انظر الأحاديث الصحيحة للألباني، ٣/١).

إخلاص القلب وسلامة القصد، وأن تتقبل عملنا وتجعله خالصاً لوجهك الكريم.

ونصلي ونسلم على صفوتك من خلقك، وخاتم رسلك، سيدنا محمد النبي الأمي.. اللهم صلِّ عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبع هداهم إلى يوم الدين.

وبعد:

كان من المفروض أن تتوثق صلتني بحجة الإسلام (الإمام الغزالي) منذ زمن أبعد من هذا، ذلك أنني تتلمذت على شيخه (إمام الحرمين الجويني أبي المعالي)، وظللت أصغي إليه، وأسمع منه، وما زلت عاكفاً على تراثه واهباً له كل ما بقي من أيامي في هذه الحياة، آملاً أن أخرج ما بقي من مخطوطاته إلى النور.

ثم إنني عنيت بكتاب (المستقصى) للغزالي، دارساً ثم مدرّساً، فعشت معه ما شاء الله أن أعيش.

ولكن كل ذلك لم يُتح لي أن أعرف الغزالي، ويوثق الصلة بيني وبينه إلى أن قرّرت جامعة قطر في العام الماضي ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م أن تحتفل بالذكرى المئوية التاسعة لوفاة الإمام الغزالي، وذلك بإصدار كتاب «تذكاري» بهذه المناسبة، يكتبه نخبة من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة، وكان من نصيبي في هذا الكتاب أن أكتب عن (الغزالي وأصول الفقه)، ورحت أقرأ ما كتب الغزالي، وما كتبت عن الغزالي، وبدأت أدلف إلى «عالم الغزالي» ومضت شهور عشتها مع حجة الإسلام، طوّفت فيها في جوانب فكره، ومناحي آثاره، وتفتّحت أمامي أكثر من قضية، وأتضحّت الخطوط لأكثر من بحث؛ منها على سبيل المثال:

(١) العقل عند الغزالي.

٢) ضرب المثل، وفنُّ التمثيل عند الغزالي.

٣) إصلاح الفرد والمجتمع عند الغزالي.

واختتمت البحث معتذراً - بحق - عن عدم إيفاء الغزالي حقّه، ثم قلت: وعسى أن يكون هذا البحث فاتحة لقاء مع الإمام الغزالي يوطد الصلة بيننا وبينه، لنؤدّي بعض ما وجب نحو تراثه العظيم.

وحقق الله سبحانه الرجاء، فكانت الدعوة إلى هذا الملتقى الكريم، ولم أتردد في اختيار موضوع يختصُّ بالإمام الغزالي، فكان هذا الموضوع:

(الغزالي بين العقل والمكاشفة)

الفَصْلُ الْأَوَّلُ

الغزالي بحر مغلاق

(الغزالي بحر مغلاق).. هذه جملة موجزة، وصف بها إمام الحرمين أبو المعالي الجويني تلميذه الغزالي، حينما تناظر الغزالي مع زميليه (الخوافي) و(الكياء الهراسي)، فقال الأستاذ (إمام الحرمين) وهو يرقب تلاميذه معقباً على مناظرتهم: "الغزالي بحر مغلاق، والكياء أسد مُحَدَق، والخوافي نار تحرق".

وأحسب أنه ما صدقت جملة أو كلمة من كلمات الثناء، مثلما صدقت هذه الجملة، فما إن تدلف إلى (عالم الغزالي) حتى ترى البحر الزاخر فعلاً وحقاً، بأواجه الهادرة، الصاخبة الثائرة المتلاطمة، وبأعماقه الرهيبية الزاخرة، المليئة بالآلئ والجواهر، وبسخائه وكرمه، وبصفائه وهدوئه، ورقة نسيمه، وبثورته العارمة، التي تكتسح كل ما يعترض طريقها، وبعواصفها التي تتصف كل ما يقف في وجهها، وبتعدد ألوان عطائه، وتنوع أصناف خيراته.

ذلك ما شعرتُ به وأدركته، حينما جلستُ أمام الغزالي، ورحتُ أسمع منه، وأنصتُ إليه، وأستقرئُ آثاره، وأستنطقُ كتبه لأسأله عن موقفه من (العقل

والمكاشفة)، إذ راح (أبو حامد) يتدفق هادراً، كدُفّاع السيل، وأخذت حُجَّجُه البالغة، وأدلته الدامغة، وتمثيله المجسّم لمعانيه، وأسلوبه المترجم، عن قلبه ومشاعره، قبل ذهنه وأفكاره، أخذ كل ذلك يحيط بي، فتشعّب البحث في القضية وأنضحت دروبه، وتدفّقت عُدراته، وبان لي أنه لا بد من شهور عدداً حتى أستطيع أن ألمم أطراف البحث، وأستوفي حواشيه، وأضمّ نشوه، وألمّ شعته.

وأنه لا بد من مئات الصفحات حتى تستوعب البحث على نحو يُرضي الغزالي، ويسمح له بأن يُدلي بحجته، ويبيّن عن طويته، ليُدحض أوهام شائتيه، ويردّ كيد حاسديه، ويفضح جهل جاهليه.

وأنتى لي بهذا الوقت؟!

ومن هنا كفت غرب القلم، وهدّأت حدّه، وأوجزتُ قولي، وأقلتت كلمي، وحصرتُ هذا البحث في الصفحات التالية.

والله الكريم أسأل أن يكون في هذا الإيجاز بلاغ، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الإمام الغزالي في الزمان والمكان

- سنة ٥٤٠هـ - ١٠٥٨م: وُلِدَ أبو حامد (حجَّة الإسلام) محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي، في مدينة (طوس) التي تعتبر المدينة الثانية في خراسان بعد (نيسابور).
سافر إلى (جرجان) ليتفقه على الإمام أبي نصر الإسماعيلي، وعلَّق عنه (التعليقة) في الفقه.
انتقل إلى (نيسابور) ليدرس بها، ولازم (إمام الحرمين)، وصار من أخصِّ تلاميذه، وبدأ في التأليف والمناظرة والمحاضرة.
- سنة ٤٧٨هـ - ١٠٥٨م: توفِّيَ شيخه (إمام الحرمين) فخرج إلى (المعسكر) فلقى (نظام الملك)، وناظر الأئمة وقهرهم، وظهر عليهم، فلقى من (نظام الملك) التقدير والإعجاب.
- سنة ٤٨٤هـ - ١٠٩١م: انتقل للتدريس بـ(النظامية) ببغداد، بتوجيه من (نظام الملك).
- سنة ٤٨٥هـ - ١٠٩١م: قُتِلَ (نظام الملك) غيلة وهو أول قتيل للباطنية.
- سنة ٤٨٦هـ - ٤٨٧هـ: أفتى لـ(يوسف بن تاشفين) بأن من حقه عزل الولاة العصاة.
- سنة ٤٨٧هـ - ١٠٩٤م: حضر الاحتفال ببيعة الخليفة (المستظهر بالله).

- ٤٨٨هـ - ١٠٩٥م: بدأت أزمة الشك العنيف التي استمرت نحو ستة أشهر.
- ٤٨٨هـ - ١٠٩٥م: ترك التدريس في نظامية بغداد، وجدَّ في البحث عن الحقيقة.
- ٤٨٩هـ - ١٠٩٦م: وصل إلى دمشق وأقام بها فترة.
- انتقل من دمشق إلى بيت المقدس، وبدأ في تصنيف كتابه (الإحياء) وعرج على زيارة (الخليل).
- ٤٨٩هـ (آخرها): عاد إلى دمشق.
- ٤٨٩هـ (آخرها): سافر إلى الحج من دمشق.
- ٤٩٠هـ - ١٠٩٧م: مرَّ ببغداد في طريقه إلى خراسان، ولقي (أبا بكر ابن العربي) ببغداد، واستمر في خلوته بـ (نيسابور) أيضاً.
- ٤٩٨هـ: ولي (سنجر) (فخرَ الملك عليّ بن نظام الملك) الوزارة، وقتل (فخر الملك) هذا في يوم عاشوراء سنة ٥٠٠هـ، بيد الباطنية كأبيه.
- ٤٩٨هـ: أذن الغزالي لإلحاق (فخر الملك) وزير (سنجر) فعاد إلى التدريس في نظامية (نيسابور) حيث كان (فخر الملك) وزيراً بها.
- عاد الغزالي إلى بيته (ربما سنة ٥٠٠هـ) بعد مقتل صفيه الوزير ابن الوزير (فخر الملك بن نظام الملك).
- اتَّخذ إلى جوار بيته مدرسة وخانقاه للصوفية، ووزَّع أوقاته على التدريس والذكر.

• ٥٠٥ هـ: يوم الإثنين ١٤ جمادى الآخرة - ١٨ ديسمبر سنة ١١٢١ م، توفى
حجة الإسلام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

تهمّةٌ ولا دليلُ:

لقد اتُّهمَ الغزالي بأنه عدُوُّ العقل، وعدُوُّ الفكر الحر، وبأنه استطاع بحملته الجريئة ومقدرته البارعة، أن يُسقط العقل من عليائه، وأن يزيله من سمائه، وأن يحطَّ من شأنه، ويُخرس من صوته، وبالتالي كبت الفكر الحر، وفزّعه، وأصابه بالذعر والهلع، حتى اختفى من حياة الأمة الإسلامية، أو كاد، ولم يعد يترأى إلا على استحياء.

وبعصر الغزالي أو بالتحديد بانتصار منهج الغزالي، ومدرسة الغزالي، وفكر الغزالي، اتَّجهت الحضارة الإسلامية إلى الانحدار، ثم الانهيار، فيُحمّلون الغزالي كلَّ ما أصاب الأمة الإسلامية من تخلف وجمود وضعف.

وذلك - في رأيهم - لأن دعوة الغزالي إلى التصوُّف والزهد في هذه الحياة الدنيا، وانسحابه من ميدان المصاولة والمطاولة، والتأليف والمناظرة إلى الخلوة والتأمل، ثم إعلانه عدم ثقته بوسائل المعرفة، وشكله فيما أقيم عليها من علوم ومعارف، واعتماده (الكشف والمشاهدة) وسيلةً للعلم والمعرفة... كل ذلك كان تهويناً من شأن العقل، وقضاءً على مكانته ومكانه.

وكذلك أيضاً كانت حملته على الفلسفة والفلاسفة - وهم أصحاب الفكر الحر - قضاءً على التفكير والمفكرين، وإرهاباً لكل صاحب رأي، ووأداً لكل نظر وبصر.. كذا قالوا.

ومن عجب أنهم قالوا هذا باسم البحث والعلم، قالوه باسم سلطان الأكاديمية وطليسان المنهجية، ورداء الجامعة، وشارة الأستاذية.

وإنه لمن المفيد جداً أن نبحث عن أصول الأفكار وجذورها، وقد حاولتُ أن أتتبع صاحب هذه الفكرة (الأول) - أول من قال بهذه التهمة- وألصقتها بإمامنا (حجة الإسلام)، حتى شاعت وأصبحت مقولة شبه بديهية لدى طائفة من كتاب عصرنا، بل لدى مدرسة ممن يحملون رايات الإصلاح ويطبّبون لأمتنا، تشخيصاً لدائها ووصفاً لدوائها.

حاولت ذلك -الوصول إلى أول من ألقى هذه التهمة في وجه الغزالي- فلم أصل بعد، ومع ذلك فما وصلتُ إليه قد يكون له مدلول.

كتب (د. أنطونيوس كرم) كتاباً بعنوان (العرب أمام تحديات التكنولوجيا)^(١)، عقد فيه فصلاً بعنوان (تأملات في أسباب التخلف العربي)^(٢)، انتهى فيه إلى "أن غياب الفكر المبدع المتجدد -الذي هو ركيزة أساسية للتطور الحضاري- يشكّل جوهر التخلف الفكري، وإذا كان الفكر المبدع هو أحد محركي الحضارة، فإن (العقل المبدع) هو المحرك الوحيد للفكر المبدع الخلاق". وراح يتساءل عن سرّ "الذبول المبكر للحضارة العربية وللحاضر العربي، بعد أن حققا في فترة قصيرة جداً إنجازات رائعة ومدوية بكل المقاييس".

(١) سلسلة (عالم المعرفة) شهرية، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت. الكتاب رقم (٥٩)، محرم - صفر ١٤٠٢ هـ - نوفمبر ١٩٨٢ م.
(٢) من ص ١٥٩ - ١٩٦.

ثم أجاب قائلاً: "إن الكثيرين من المحللين يرون أن انتصار المؤسسة السياسية الثقافية التي جسدها (الإمام الغزالي) أحسن تجسيد، هي التي أوقفت المدَّ الفكري عند العرب، وشكّلت منذ ذلك الحين سدّاً في وجه كل إصلاح"^(١).

وراح يبسط هذه الفكرة ويوضحها، فقال:

"ويرى الدكتور (نقولا زيادة)^(٢) أن احتكاك الفلاسفة والمفكرين العرب بالفكر اليوناني أسببهم الكثير من المنطق وطرق المحاولة عند الفلاسفة اليونانيين، فبدأ الفلاسفة العرب المتأثرون بالفكر اليوناني يأخذون على عاتقهم مهمة التوفيق بين الدين والعقل، أو بين الشريعة والحكمة، وبلغ هذا ذروته في محاولة ابن رُشد في مرحلة لاحقة -وهو أكثر الفلاسفة العرب الذين فهموا وتعمّقوا بالفكر اليوناني، وبالأخص بمنطق أرسطو- التوفيق بين العقل والإيمان، وهكذا بدأت الخصومات الحادة بين الفقهاء والفلاسفة، وبالأخص المتصوّفين منهم (على أساس أن التصوّف أساساً هو محاولة للوصول إلى الخالق، وإلى الحكمة الإلهية دون المرور بالشرعية الإسلامية).

وانتهت الخصومة بانتصار الفقهاء على الفلاسفة، بانتصار الغزالي على ابن رُشد، الذي أحرقت كتبه... ومع نهاية المعركة بين الفقهاء والفلاسفة خدمت الحركة الفكرية والفلسفية العربية إلى أمد طويل"^(٣).

(١) ص ١٦٨.

(٢) الأبعاد التاريخية لأزمة التطور العربي: بحث ألقاه في ندوة (أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي)، الكويت ٧ - ٢ إبريل ١٩٧٤م.

(٣) العرب أمام تحديات التكنولوجيا، ص ١٦٩.

ويؤكد هذا المعنى أيضاً باستشهاد جديد، فيقول:

"ويرى الشاعر والكاتب العربي المعروف (أدونيس) أن انتصار الغزالي والمؤسسة الثقافية التي يُجسدها، كان انتصاراً للفكر التقليدي، وهزيمة للتجديد والإبداع، ويستشهد أدونيس بقول الإمام الغزالي المشهور "السلامة في الاتباع والخطر في البحث عن الأشياء، والاستقلال، ولا تكثر اللجج برأيك ومعقولك ودليلك وبرهانك، وزعمك أني أبحث عن الأشياء لأعرفها على ما هي عليه، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس، وما انكبَّ عليه الناس، فأكثره مبتدع ومحدث"، وأصبح - ما زال الكلام لأدونيس - من يخرق ما شرعه الأسلاف أو أسسوه كأنه يقتل هؤلاء الأسلاف أنفسهم، وهكذا تأصل التمسك بالماضي في الحياة العربية، وزادت نزعة التعلق بالمعلوم ورفض المجهول، بل والخوف منه"^(١).

شنشنة أعرفها من أخزم:

وفي محاولة منا للبحث عمّن يكون قد سبق بإلقاء هذه التهمة في وجه الغزالي، نظرتُ في كتب (سلامة موسى)^(٢) فوجدته فعلاً قد سبق بها، وستجاوز غمزه ولمزه، ومحاولته إثبات أن الإسلام في حقيقته عدو للتفكير

(١) المرجع السابق، والصفحة نفسها.

(٢) كاتب قبطني مصري، توفي سنة ١٩٥٨م، كان صاحب هدف وغاية، تتولى دار المستقبل للنشر بالقاهرة والإسكندرية المملوكة لأولاده نشر مؤلفاته وإذاعتها، تحت عنوان (تراث من الكفاح الهادف)، وقرأ عنه بعض إشارات في كتاب أستاذنا العلامة (محمود شاكر) (أباطيل وأسماير) فعندها تعرف طبيعته وما يدعو إليه.

وللعقل وحرية الرأي، ونكتفي بما يتصل بإمامنا الغزالي، فقد استشهد ببعض أقوال الغزالي، ثم جاد عليه بهذا التعقيب فقال:

" وهذا كلام يقطر منه الإخلاص والنزاهة، ومع ذلك لم يكن الغزالي ولياً أبله يتمسح به الناس ويلبس المرقعات، ويتواجد بالصيحات، بل كان رجلاً مثقفاً ذكياً، درس المنطق والفلسفة، وأكبَّ على فهم الإنجيل والتوراة^(١)، فهو إذاً شرح الإسلام، فإنما يشرحه على الوجه الذي يجب أن يفهم عليه، وهو إذاً حكم بتكفير أحد من المسلمين فإنما يفعل ذلك مدفوعاً بقوة إيمانه، وماذا كان أثر هذا العالم المسلم في الشرق العربي؟

كان أثره أنه قاوم الفلسفة حتى هدمها، وكفر جميع من يدرسها، وكان بعد ذلك أقوى أساس بُني عليه اضطهاد الفلاسفة والمفكرين، حتى انتقلت الفلسفة من الشرق إلى الغرب، أي إلى الأندلس، وليس يمكنك أن تنقم شيئاً على الغزالي من هذه الوجهة، سوى أنه كان ينظر نظراً دينياً ضيقاً^(٢).

ثم علق على عباراتٍ أخرى نقلها عن الغزالي، فقال:

" ومن هذه القطعة يرى القارئ أن الغزالي يفهم ما يقول تمام الفهم، ويحكم على من يخالفه في رأيه الديني بالزندقة، ويجزم في حكمه، والمسافة بين الحكم بالزندقة والحكم بالقتل قريبة جداً^(٣).

ثم يتهم بالغزالي فيقول: "وقد عاش الغزالي بعد أرسطو بنحو ألف

(١) كذا.

(٢) حرية الفكر وأبطالها في التاريخ: ص ٩٤ دار المستقبل بمصر، دون تاريخ.

(٣) المصدر السابق، ص ٩٥.

وأربعمائة سنة، ومع ذلك لم يبخل عليه بالتكفير، وعلى كل من أتبعه من فلاسفة المسلمين^(١).

ولم ينس أيضاً أن يشبه بالغزالي القسيس البروتستانتى المتعصب (كالفرن) الذي كان يحرق معارضيه بالنار^(٢).

وفي الحق أن (سلامة موسى) لا يعنينا في هذا الأمر كثيراً، فهو ليس من أهل هذا الشأن، ولكننا كنا نرجو أن يحيلنا على مصدره الذي استقى منه هذا الرأي في الإمام الغزالي، ولكنه لم يفعل.

وممن قالوا بهذا الرأي، وأتهموا الإمام الغزالي بهذه التهمة المستشرق الفرنسي (محمد أركون) في بحثه الذي ألقاه أمام الملتقى الفكري الثامن عشر بمدينة الجزائر يوليو ١٩٨٤م، حيث كان يتحدث عن تجديد التفكير الديني.

وقد أشار إلى شيوع هذه الفرية عن الإمام الغزالي، الأستاذ الجليل الدكتور (سليمان دنيا) حين قال:

"وقد غفل قوم في القديم والحديث، وظنُّوا أن الغزالي يحمل على التفكير العقلي جملة ويكرهه، ويحاربه ويريده ألا يكون، ومن هنا قالوا ما قالوا، من أن الغزالي قد ضرب الفلسفة -يعنون كلها- ضربة لم تقم لها بعد في الشرق قائمة.

ومن الغريب أنه حتى في عصرنا هذا، بعد ما تيسر طبع كثير من الكتب،

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق: ص ١٧٢.

وتيسر تبعاً لذلك الاطلاع على كثير من كتب الغزالي، وما زال بعض المنتسبين إلى العلم، والواضعين أنفسهم بين أهله في مقام الصدارة يجهلون هذه الحقيقة، وقد يبلغ بهم الأمر أن يزعموا أن الإسلام -فضلاً عن الغزالي- يكره الفلسفة ويحاربها^(١).

وكذلك يؤكد شيوخ هذه الفكرة الخاطئة عن الغزالي، أستاذنا الدكتور (محمود قاسم)^(٢) فيقول: "من المشهور أن الغزالي قد فضل التصوف على العقل، بل يقال إنه حقر العقل، وغض من شأنه"^(٣).

ثم يؤكد أنه تتبع كتب الغزالي، فانتهى إلى عكس هذا القول، وثبت لديه أن الغزالي يمجّد العقل، ويثق به، ويجعله ميزان الحق. ولكنه لم يُشر -مثل سليمان دنيا- إلى أصحاب هذه التهمة، وإلى من ابتدع هذه الفرية، ولا من يردّها، وعذرهما في ذلك هو (الشيوع) و(الاشتهار)، فكم من آراء تشيع وتنتشر وتتناقلها الأقلام وتتداولها الألسنة، وتتاورها الصحف والمجلات، وتتبادلها الكتب والمراجع، حتى تصير باللجاجة والإلحاح حقائق، وثوابت ونظريات، وبمعنى أصح: يتخيّل المتخيّلون أنها حقائق ونظريات، فلا يُسأل عن مصدرها، ولا عن أهلها، وإذا كان التتبع في قضيتنا هذه قد أَرانا (سلامة موسى) ثم (نقولا زيادة) ثم (أدونيس) ثم (أنطونيوس كرم) ثم (أركون)، فقد يكون لهذه الأسماء مدلول.

(١) سليمان دنيا: مقدمة تهافت التهافت ١٨/١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م.

(٢) أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة، والعميد الأسبق لكلية دار العلوم، وأحد الأعلام في مجال الفلسفة الإسلامية.

(٣) محمود قاسم: دراسات في الفلسفة الإسلامية: ص١٤٧.. دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م.

وبالقطع ليست هذه بداية السلسلة، وقد لا تكون هذه الحلقات متتابعة أو متتالية، ويبقى على الباحث أن يبذل جهده ووسعه، حتى يعرف من أين نشأ هذا القول، ومن أين بدأ هذا الاتهام لأبي حامد؛ وذلك إرضاء للحقيقة، قبل أن يكون إنصافاً للغزالي، وكأنني على يقين أن وراء هذا فكر مشوّه، وأقلام مسمومة.

وندع هذا إلى حين يتم البحث والكشف عن أصول هذه الفكرة أو الفرية وجذورها (وما أكثر ما في ثقافتنا من قضايا زائفة تحتاج إلى البحث عن أصولها وجذورها).

ومن العجيب أن (ابن رُشد) الذي تصدّى للغزالي، بالردّ والنقض والهجوم، كان أصدق رأياً وأدقّ فهمًا لموقف الغزالي من باحثي عصرنا و"كاترة زماننا" فلم يتهم الغزالي بما اتهموه به، وكان دقيقاً غاية الدقة، مدركاً غاية الإدراك، فلم يشأ أن يسمي كتابه -الذي ردّ به على الغزالي- تهافت الغزالي، وإنما سمّاه (تهافت التهافت) ليؤكد حصر الخصومة والخلاف، في خصوص القضايا التي خاصم فيها الغزالي الفلاسفة في كتابه (تهافت الفلاسفة)⁽¹⁾⁽¹⁾.

وخلص ما اتُّهم به الغزالي، على السنة هؤلاء وغيرهم، هو أنه ضدُّ العقل، فهو:

- ضدُّ العقل حين هدم الفلسفة وأذلَّ كبرياءها.
- وهو ضدُّ العقل المبدع حين كَمَر الفلاسفة.
- وهو ضدُّ العقل حين تصوّف ودعا إلى المكاشفة والمشاهدة.

(١) سليمان دنيا: مقدمة تهافت التهافت ١٨/١.. بتصرف، مرجع سابق.

• وهو ضدُّ العقل حين انسحب من المجتمع وترك رئاسة (النظامية) ونشر العلم والتدريس والمناظرة.

• وهو بهذا كله كان سبب تأخر العالم الإسلامي وانحطاطه.

وسنحاول في الصفحات التالية أن نوجز الحديث عن أبرز هذه النواحي لنرى كم تجنُّ هؤلاء (المتوسمون بالعلم) على الحقيقة، وعلى المنهج، وعلى البحث العلمي، وعلى الأكاديمية التي يتشدقون بها، قبل أن يتجنوا على حجة الإسلام الغزالي.

المكاشفة عند الغزالي:

رأينا أن الصراع الموار الذي أصاب الغزالي كان في جذوره وأسسها، بسبب ما حصل معه من إيمان يقيني بالله تعالى، وبالنبوة، وبالיום الآخر، وما رسخ في نفسه من هذا الإيمان، فراح ينظر إلى مجتمعه، وأصناف الخلق، وقيسهم بمقياس هذا الإيمان، ومقتضاه، باحثاً عن الحق عند الطوائف كلها، والمذاهب على اختلافها.

ولكنه قبل أن يبحث عن (الحق) من هذه المذاهب والطوائف والآراء، توقّف ليتساءل: بأي مقياس يقيس؟ وبأي ميزان يزن؟ وبأي معيار يحكم؟ فقال: إنه "لا مطعم في اقتباس المشكلات إلا من الجليات، وهي الحسيات والضروريات، فلا بد من إحكامها أولاً، لأتيقن أن ثقتي بالمحسّات وأماني من الغلط في الضروريات، من جنس أماني الذي كان من قبل في التقليدات، ومن جنس

أمان أكثر الخلق في النظريات، أم هو أمانٌ محققٌ لا غدر فيه، ولا غائلة له^(١).
وأخذ في اختيار الحسيّات، وأقبل بجدٍّ بليغٍ يتأملها، وينظر هل يمكن أن
يتشكك فيها، حتى وصل إلى نتيجة عبّر عنها بقوله:

"أنتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسّات
أيضاً". وأخذ يتتبع هذا الشك فيها، ويقول: "من أين الثقة بالحواس؟ وأقواها
حاسة البصر، وهي تنظر إلى الظل، فتراه واقفاً غير متحرّك، وتحكم بنفي
الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة - بعد ساعة - تعرف أنه متحرّك، وأنه لم
يتحرّك دفعة بغة، بل على التدرّج ذرة ذرة، حتى لم تكن له حالة وقوف.

وتنظر إلى الكوكب، فتراه صغيراً في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل
على أنه أكبر من الأرض في المقدار.

هذا وأمثاله من المحسّات يحكم فيها حاكم الحسّ بأحكامه، ويكذّبه حاكم
العقل ويخونه، تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته^(٢).

وبعد أن شكك الغزالي في الحسيّات، وأظهر عدم الثقة بها، لم يبقَ أمامه
إلا الضروريات العقلية الأولية، فأخذ في اختبارها، فلم يجد لها مثلاً يمكن أن
يأخذها به، ويسلب الثقة منها بواسطته، إلا أنه لم يسلّم لها أيضاً، وأخذ يبيدي
احتمالات تُضعف الثقة بها، وعبّر عن ذلك قائلاً:

"فقال الحواس: بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالحسيّات، وقد
كنت واثقاً بي؟ فجاء حاكم العقل فكذبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمرُّ على

(١) المنقذ من الضلال: ص ٩١..

(٢) المصدر السابق نفسه.. مرجع سابق.

تصديقي، فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر، إذا تجلَّى كذب العقل في حكمه، كما تجلَّى حاكم العقل فكذب الحسِّ في حكمه، وعدم تجلِّي ذلك الإدراك لا يدل على استحالته.

فتوقَّفت النفسُ في جواب ذلك قليلاً، وأيدت إشكالها بالمنام، وقالت: أما تراك تعتقد في النوم أموراً وتتخيَّل أحوالاً، وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً، ولا تشكُّ في تلك الحالة فيها، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن الجميع متخيَّلاتك ومعتقداتك أصل وطائل؟

فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك التي أنت فيها، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك، كنسبة يقظتك إلى منامك، وتكون يقظتك نوماً بالإضافة إليها! فإذا وردت تلك الحالة تيقَّنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها.

ولعل تلك الحالة ما تدَّعيه الصوفية أنها حالتهم، إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي (لهم)، إذا غاصوا في أنفسهم، وغابوا عن حواسهم، أحوالاً لا توافق هذه المعقولات.

ولعل تلك الحالة هي الموت، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "الناسُ نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا"، فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة، فإذا ماتت ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن، ويقال له عند ذلك: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ٢٢).

فلما خطررت لي هذه الخواطر وانقدحت في النفس، حاولت لذلك علاجاً، فلم يتيسَّر؛ إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب

العلوم الأولية، فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب الدليل"^(١).

وهنا بعد أن أسقط الغزالي الثقة بالحواس، ثم ثنى بالعقل، فلم تعد الحسيّات لديه مصدّقة، ولا الضرورات العقلية مقبولة، هنا لم يستطع أن يستمر في وزن الحقائق وقياسها، فبأي مقياس يقيس، إذا ذهبت الثقة بالحواس، ثم بالعقل!!

هنا تعرّض الغزالي لأزمة عنيفة، لكنها لم تطل، إذ شفي منها سريعاً، وندع له رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ: يَصوِّرُ لَنَا ذَلِكَ بعبارته وبيانه إذ يقول:

" فأعضل هذا الداء، ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين"^(٢).

وهنا وجد الغزالي ميزاناً يزن به الحق، بعد أن عادت الثقة بالضرورات العقلية، فأصبح من الممكن بهذه العلوم الأولية أو الضرورات العقلية - كما يسميها - نصب دليل، وتركيب مقدمات.

وانظر هنا تصوير الغزالي لحالة الثقة بالعقل بأنها (الصحة والاعتدال). أخذ الغزالي في نقد الفرق والمذاهب فوجدها تنحصر في أربع: (المتكلمون، والفلاسفة، والباطنية، والصوفية).

(١) المنقذ من الضلال: ص ٩٢.

(٢) المنقذ من الضلال: ص ٩٣.. مرجع سابق.

فدرس الكلام وحصله، وألّف فيه، ولكنه لم يجده موصلاً إلى العلم الحق الذي يُريده، وقال عنه: (صادفته علماً وافياً بمقصوده، غير وافٍ بمقصودي)^(١).

ثم انتقل إلى الفلسفة، وجدّ في دراستها، وشمّر عن ساق الجد في تحصيلها من الكتب، بمجرد المطالعة، من غير استعانة بأستاذ، وأقبل على ذلك في أوقات فراغه من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية^(٢).

وانتهى من هذه الدراسة الواعية للفلسفة إلى أن مجموع ما صحّ عنده من فلسفة أرسطاطاليس ينحصر في ثلاثة أقسام:

١ - قسم يجب التكفير به.

٢ - وقسم يجب التبديع به.

٣ - وقسم لا يجب إنكاره أصلاً.

وقسّم علومهم إلى ستة أقسام: (رياضية، ومنطقية، وطبيعية، وإلهية، وسياسية، وخلقية)^(٣).

ووجد أن هذه العلوم لا تعلق لها بالدين في أصلها، إلا ما يختص بالإلهيات، وهو يبحث عن الحق، في ضوء إيمانه اليقيني الراسخ الذي أشار إلى أنه هو باعته إلى البحث عن الحقيقة.

ومن هنا جعل هجومه على الفلسفة محصوراً في الإلهيات فقط، وأحصى

(١) المرجع السابق، ص ٩٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١، ٢، بتصرف يسير.

(٣) المنقذ من الضلال: ص ١١٢.

ما غلطوا فيه، فوجده عشرين أصلاً، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها، وتبديعهم في سبعة عشر^(١).

ثم انتقل إلى مذهب التعليمية " وكانت قد نبغت نابغتهم، وشاع بين الخلق تحدُّثهم بمعرفة معنى الأمور، من جهة الإمام المعصوم، القائم بالحق... فابتدأت بطلب كتبهم، وجمع مقالاتهم. وكان قد بلغني بعض كلماتهم المستحدثة، التي ولَّدتها خواطر أهل العصر، لا على المنهاج المعهود من سلفهم، فجمعت تلك الكلمات، ورتبَّتها ترتيباً محكِّماً، مقارناً للتحقيق، واستوفيت الجواب عنها... والمقصود أني قرَّرتُ شبهتهم إلى أقصى الإمكان، ثم أظهرتُ فسادها بغاية البرهان.. والحاصل أنه لا حاصل عند هؤلاء، ولا طائل لكلامهم"^(٢).

ثم بقيت الصوفية، فتجرَّد لها، وعلم أن طريقتهم لا تتمُّ إلا بعلم وعمل، "وحاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصَّل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليلته بذكر الله"^(٣).

فأقبل على علومهم حتى حصَّلها من كتب أئمَّتهم، وأحاط بها، وأحكمها، وبقي العمل، وهنا يقول:

"فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال، لا أصحاب الأقوال، وأن ما يمكن

(١) المرجع السابق: ص ١١٨ بتصرف.

(٢) المرجع السابق: ص ١٣٠ - ١٣١ بتصرف.

(٣) المرجع السابق: ص ١٢٩.

تحصيله بطريق العلم فقد حصَّلتَه، ولم يبقَ إلا ما لا سبيل إليه بالسمع والتعلُّم، بل بالذوق والسلوك^(١).

وهنا بدأت مرحلة المجاذبة بينه وبين نفسه، وكان الاختيار صعباً، والتردد والتجاذب عنيفاً، كيف يترك ما هو فيه من جاه وصيت، ومنزلة ومكانة، وغنى وتنعم، ويقطع عقبات النفس وعلائق القلب بكل ما هو فيه، ولقد أحسن وأبدع في تصوير هذه الحالة حين قال:

"فلم أزل أتفكّر فيه مدة، وأنا بعدُ على مقام الاختيار، أصمّم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً، وأحلُّ العزم يوماً، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى. لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة، إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية.

فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل! الرحيل! فلم يبق من العمر إلا قليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخيل! فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟ فعند ذلك تتبعث الداعية، وينجزم العزم على الهرب والفرار.

ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حال عارضة، إياك أن تطاوعها، فإنها سريعة الزوال؛ فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص، والأمر المسلم الصالح في منازعة الخصوم، ربما التقت إليه نفسك، ولا يتيسر لك المعاودة^(٢).

(١) المنقذ من الضلال: ص ١٤٢.

(٢) المرجع السابق نفسه.

ولم يزل في هذه الحال بين شد وجذب نحو ستة أشهر، حتى اعتلت صحته، واعتقل لسانه، فعجز عن التدريس، ولم يعد ينسأغ له طعام أو شراب، وحر الأطباء في علاجه، وسقط اختياره بالكلية، فالتجأ إلى الله سبحانه، فأجابه الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهّل على قلبه الإعراض عن الجاه والمال، والأهل والأولاد والأصحاب، وخرج من بغداد، وكانت الخلوّة والعزلة.

فمن تنمّة منهج الصوفية أن "تخلو بنفسك في زاوية، تقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب، وتجلس فارغ القلب، مجموع الهم، مقبلاً بذكرك على الله.

وذلك في أول الأمر، بأن تواظب باللسان على ذكر الله تعالى، فلا تزال تقول (الله، الله) مع حضور القلب وإدراكه، إلى أن تنتهي إلى حالة، لو تركت تحريك اللسان، لرأيت كأن الكلمة جارية على لسانك لكثرة اعتياده. ثم تصير مواظباً عليه، إلى أن ينحى أثر اللسان، فتصادف نفسك وقلبك، مواظبين على هذا الذكر، من غير حركة اللسان.

ثم تواظب إلى ألا يبقى في قلبك إلا معنى اللفظ، ولا يخطر ببالك حروف اللفظ، وهيئات الكلمة، بل يبقى المعنى المجرد، حاضرًا في قلبك، على اللزوم والدوار.

ولك اختيارٌ إلى هذا الحد فقط، ولا اختيار بعده لك، إلا في الاستدامة لدفع الوسواس الصارفة.

ثم ينقطع اختيارك، فلا يبقى لك إلا الانتظار لما يظهر من فتوح ظهر مثله للأولياء، فهو بعض ما يظهر للأنبياء.

قد يكون أمراً كالبرق الخاطف لا يثبت، ثم يعود.. وقد يتأخر، فإن عاد فقد يثبت، وقد يكون مختطفاً، وإن يثبت يمتدّ ثباته، وقد لا يطول، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق. وقد لا يقتصر على فن واحد. ومنازل أولياء الله فيه لا تُحصى؛ لتفاوت خلقهم وأخلاقهم^(١).

حقيقة المكاشفة :

دامت خلوة الغزالي نحو إحدى عشرة سنة، يحكي عنها، وعمّا كان فيها قائلاً:

" وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به: أنني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً؛ فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.

وبالجملّة، فماذا يقول القائلون في طريقة، طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة، استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية

(١) ميزان العمل: ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

في الله؟ وهذا آخرها بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها، وهي على التحقيق أول الطريقة، وما قبل ذلك كالدلهيز للسالك إليه. ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه^(١).

رأى الغزالي - بعد عرض الفرق والطوائف على ميزان الحقيقة - أن الصوفية هم أصحاب الطريق إلى الله حقاً، وأنهم المستضيئون بنور النبوة، وأن العلم الحق لهم، والمعرفة الحققة لهم.

" وفي هذه المدة - مدة الخلوة والعزلة - تجلت للغزالي الحقيقة التي كان يتلهف شوقاً إليها، فهدأت نفسه، وذهب قلقه، وأدرك أن طريق الصوفية هو الطريق الحق، فلن يعود الغزالي بعد ذلك حائراً، فقد ظفر بما كان يبغي، ولن يعود باحثاً عن منهج لليقين بعد^(٢).

وهذا المنهج هو " تطهير محض من جانبك، وتصفية وجلاء، ثم استعداد وانتظار"^(٣).

أي أن المعرفة تنبثق في القلب - إذا أحسن التهيؤ لها - وتتفجر فيه من داخله، بنور يقذفه الله - سبحانه وتعالى - ويتذوقه صاحبه، وذلك دون

(١) المنقذ من الضلال: ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٢) سليمان دنيا: الحقيقة في نظر الغزالي. دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١ م.

(٣) ميزان العمل: ص ٢٢٣.

ترتيب مقدمات، وتركيب أدلة، وإنما هو انكشاف رباني أمام النفس التي تمّ تطهيرها، وجلّؤها، وصفائها، فتعكس عليها العلوم الحقّة، من غير سعي في سبيلها، وجري وراءها، يشعر صاحبها بها، بذوقه، وتملاً نفسه، وكما قال الغزالي: "ويضيقُ عنها نطقُ النطقِ فلا يحاولُ معبّرٌ أن يعبّرَ عنها، إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح، لا يمكنه الاحتراز عنه".

هذه هي المكاشفة التي رآها الغزالي طريق العلم الحق، والوصول إلى الحقيقة، وهي التي دعا كلُّ أحد أن يكون له حظٌّ من هذا العلم أيّاً كان هذا الحظ، وأقلُّ ما يمكن أن يكتفي به من هذا العلم ألا يُنكر على أصحاب الكشف والذوق^(١).

وعن هذا كانت الاتهامات التي وجّهها من وجّهها إلى الغزالي، وذلك ما سنحاول عرضه في الصفحات التالية:

هل المكاشفة بديل العقل؟

فهم بعض المتوسّمين بالعلم (على حد تعبير الغزالي) ذلك، وزعموا أن الغزالي ما دام قد اعتمد المكاشفة طريقاً للعلم الحق، فمعنى ذلك أنه أسقط العقل عن عرشه، وعزله عن مكانه وموقعه، وشاع ذلك الفهم الخاطئ وذاع، وتناقلته الأقلام والألسنة، وأصبح مبنوياً في الكتب، وينظر إليه على أنه قضية علمية شبه مسلمة، إن لم تكن مسلمة.

ولو قرأ هؤلاء ما قاله الغزالي عن (المكاشفة) بله ما كتبه عن العقل،

(١) الإحياء: ١/١٩ - ٢٠.

لأدركوا أن المكاشفة ليست بديلاً للعقل - عند الغزالي - ولا قسيماً له، فهو يرى أن العقل هو الحاكم الذي لا يُعزل ولا يُبدل، وأنه لا بد منه لمن يريد الوصول إلى المكاشفة، من أن يمرَّ بطريق العقل، فلن يصل إلى المكاشفة من لم يُتقن العلوم أولاً، ولا بد أن ترتاض نفسه بالعلوم الحقيقية، ويشتغل بتحصيلها بمعرفة معيار العلم.

والأولى أن نسمع هذا الكلام بلفظ الغزالي، ومن قلمه، قال:

"فإذا لم تكن النفس قد ارتاضت بالعلوم الحقيقية، اكتسبت بالخاطر خيالات تظنها حقائق منزلة عليها.. فكم من صوفي بقي في خيال واحد عشر سنين إلى أن تخلص منه، ولو كان قد أتقن العلوم أولاً لتخلص منه على البديهة.

فالإشغال بتحصيل العلوم بمعرفة (معيار العلم) وتحصيل براهين العلوم المفصلة أولى؛ فإنه يسوق إلى المقصود سياسة موثوقاً بها، كما يوثق بالاجتهاد في أن يحصل فقه النفس.

وقد كان عليه السلام فقيه النفس من غير اجتهاد، لكن لو أراد مريد أن ينال رتبته بمجرد الرياضة فقد توقع بعيداً، فيجب تحصيل نفس العلوم الحقيقية في النفس، بطريق البحث والنظر على غاية الإمكان، وذلك بتحصيل ما حصّله الأولون أولاً.

ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف للخلق الباحثين عن الأمور الإلهية؛ فما لم ينكشف للخلق أكثر مما انكشف^(١).

(١) ميزان العمل: ص ٢٢٤.

فهذا كلام ناطق واضح صريح، قبل التعرُّض للمكاشفة، لا بد من تحصيل ما حصَّله الأولون أولاً، " ويجب تحصيل نفس العلوم الحقيقية في النفس، بطريق البحث والنظر". هكذا " بطريق البحث والنظر".

وانظر قوله: " ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف للخلق".

هل يوحى قوله "لا بأس" بأن طريق المكاشفة ليس حتمي السلوك؟ أو ليست الدعوة إليه بالإلزام؟

وهل تعبيره في جانب تحصيل العلوم بطريق البحث، بقوله " فيجب" يوحى

بأن ذلك حتمي لازم؟

أي أن طريق العقل (يجب أن يسلكه) وطريق المكاشفة (لا بأس أن يسلكه)..

هذا ما نلاحظه من ثمرة الفرق بين التعبيرين، وأرجو أن نكون قد أصبنا الحقيقية.

الفَصْلُ الثَّانِي

الغزالي والفلسفة والفلاسفة

ماذا نعني بالفلسفة؟

إن كانت الفلسفة عملاً فكرياً، ومحاولات عقلية يراد بها الاهتداء إلى الصواب والوصول إلى الحق، فأعمال الغزالي كلها ممارسات فكرية، ومحاولات عقلية، بحثاً عن الحق والصواب.

فإن كان ابن سينا والفارابي ومن نحا نحوهما، قد سلخوا مسلكاً عقلياً صرفاً فيما اهتموا إليه واعتقدوه رأياً لهم، فإن الغزالي قد سلك مسلكاً عقلياً صرفاً فيما ذهب إليه من تزييف هذه الآراء، وهدم تلك الأفكار^(١).

فالغزالي إذاً فيلسوف في هدمه لهذه الفلسفة.

وعلى ذلك يكون إطلاق اسم الفلسفة على ما ذهب إليه ابن سينا والفارابي ومن نحا نحوهما، دون ما أتى به الغزالي وغيره تحكماً لا معنى له، ولا سند له من عقل أو اصطلاح.

اللهم إلا إذا كان منظوراً عند هذا التخصيص إلى مصدر الآراء التي جاء

(١) راجع في هذا المعنى: سليمان دنيا: مقدمة كتاب تهافت الفلاسفة، ص ٥ - ١٢.

بها ابن سينا والفارابي من فلاسفة اليونان، أي أن الفلسفة هي ما استعاره المفكرون المسلمون من أرسطاطاليس وأفلاطون، وحاولوا التلفيق بينهما وبين الإسلام، أو تطويع الإسلام لها.

إن كانت الفلسفة بهذا المعنى الضيق، فقد هدمها الغزالي، وحق له أن يهدمها، فهي بهذا المعنى علم الأصنام عند اليونان، على حد تعبير المفكر الإسلامي علامة الهند أبو الحسن الندوي -مد الله في عمره- فهو إذاً ضد التقليد داعٍ إلى استخدام العقل والفكر، وعدم قبول الآراء مهما كانت أصحابها.

وقد أشار إلى هذا المعنى أستاذنا الدكتور (محمود قاسم حسين) قال^(١):

"أما الفلاسفة الذين يظن أنهم يعتمدون على الأدلة العقلية، وعلى المعرفة اليقينية في تقرير معتقداتهم، وفي محاولة التوفيق بين آرائهم والدين، والذين يخيل إليهم أنهم أنصار العقل، وأبعد الناس عن التقليد، نقول: إن هؤلاء لا يبرؤون في نظر الغزالي، من الركون إلى منهج التقليد، ودليل ذلك ما أخذه فلاسفة الإسلام، تقليداً عن فلاسفة اليونان، وما مزجوا به آراءهم من معتقدات باطلة لا تتفق وروح دينهم".

ومن هنا كان الغزالي على حق، حين عبّر عن شعوره نحو الفلاسفة بهذا المعنى الضيق بالازدراء^(٢)، إذ رآها ادعاءً وانتحالاً لآراء الأقدمين.

فما هدمه الغزالي ليس الفلسفة الإسلامية؛ ذلك أن مفكري الإسلام الممثلين، لروح الإسلام لم يقبلوا الفلسفة الأرسطاطاليسية ولا المنطق الأرسطاطالي،

(١) دراسات في الفلسفة الإسلامية: ص ١٨٦. دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م.

(٢) المنقذ من الضلال: ص ٨٧.. مرجع سابق.

ونحن ننتكب الصواب إذا قلنا إن ابن سينا يمثل الإسلام ولا يمثله الغزالي، لم يكن ابن سينا مفكراً مسلماً على الإطلاق، ولم يمثل الحضارة الإسلامية أدنى تمثيل، ولا يتصور عاقل أن يكون (الشفاء) ممثلاً لفكرة إسلامية وروح إسلامي، بينما يمثل (تهافت الفلاسفة) للغزالي روح الإسلام الحقيقي.

ثم إن الغزالي في هدمه للفلسفة بهذا المعنى أكثر (عقلانية) من ابن سينا والفارابي، فهو ضد التقليد، تقليد أرسطاطاليس وأفلاطون، ضد نقل الأفكار والتعهد لها مهما كان أصحابها، ومهما كانت أسماؤهم.

بل هو يفسر قبول ابن سينا والفارابي لهذه الآراء الوافدة، والأفكار الغربية بانبهارهم بأسماء طنانة، وألفاظ رنانة، وهذا قوله في مقدمة التهافت:

" وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسماء هائلة كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وأمثالهم، وإطناب طوائف من متبعيهم وضلالهم في وصف عقولهم، وحسن أصولهم، ودقة علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والإلهية، واستبدهم -لضرط الذكاء والفتنة- باستخراج تلك الأمور الخفية، وحكايتهم عنهم أنهم -مع رزانة عقولهم وغزارة فضلهم- منكرون للشرائع والنحل، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل، ومعتقدون أنها نواميس مؤلفة، وحيل مزخرفة.

فلما قرع ذلك سمعهم ووافق ما حكي من عقائدهم طبعهم، تجملوا باعتقاد الكفر، تحيزوا إلى غمار الفضلاء بزعمهم، وانخرطوا في سلوكهم، وترفعوا عن مسaire الجماهير والدهاء، واستكافوا من القناعة بأديان الآباء، فلنا بأن إظهار التكايس في النزوع عن تقليد الحق بالشروع في تقليد الباطل جمال، وغفلة منهم عن أن الانتقال إلى تقليد عن تقليد خرق وخبال، فأية رتبة في عالم الله أحس من رتبة من يتجمل بترك الحق المعتقد تقليدياً، بالتسارع إلى

قبول الباطل تصديقاً، دون أن يقبله خبراً وتحقيقاً، والبله من العوام بمعزل عن فضيحة هذه المهواة، فليس في سجيّتهم حُب التكايس بالتشبه بذوي الضلالات، فالبلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بترء، والعمى أقرب إلى السلامة من بصيرة حولاء"^(١).

ولعلّ ابن رُشد تبيّه إلى هذا، فكتب (مناهج الأدلة) في صورة إسلامية، بينما كانت شروحه لكتب أرسطو وكتابه (تهافت التهافت) خروجاً على الفكر الإسلامي ومتابعة لروح يوناني لفظه الإسلام لفظاً تاماً"^(٢).

فهو إذاً هدم الآراء المجلوبة، أي هدم (التقليد) ولم يهدم الفكر، ولم يهدم الفلسفة، فهو قد وضع لنفسه دستوراً لم يحد عنه قيد شعرة، وهو "معرفة الرجال بالحق، لا معرفة الحق بالرجال"، ولذا كان يوصي من يطّلع على الفلسفة أن يجتهد لنفسه، وألا يعطلّ عقله تقليداً لأرسطو وأفلاطون.

وهذا الشعور بالازدراء نحو هؤلاء المتعاملين و(المتكاسين) هو الذي يفسّر لنا ذلك الأسلوب اللاذع والتقد الساخر الذي نراه في كتابه (تهافت الفلاسفة)، فمع أن الغزالي في هذا الكتاب فيلسوف عملاق، وتجده قد مزج بذلك الفكر الجادّ سخريّة مُرّة من الفلاسفة، تصل إلى حد (السباب) كما سمّاها الأستاذ الجليل (سليمان دنيا)^(٣) رحمه الله.

ويكفي مثلاً على ما نقوله ما يطالعك به الغزالي في مقدمة كتابه (تهافت الفلاسفة) من مثل قوله:

"فلما رأيت هذا العرق من حماقة نابضاً على هؤلاء الأغبياء، انتدبت

(١) مقدمة التهافت: ص ٦٠.

(٢) د. علي سامي النشار: نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام: ١٦٧/١.

(٣) في مقدمة لتهافت التهافت: ص ٢١.

لتحرير هذا الكتاب، رداً على الفلاسفة القدماء، مبيناً تهاافت عقيدتهم، وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالإلهيات، وكاشفاً عن غوائل مذهبهم وعوراتها التي هي -على التحقيق- مضاحك العقلاء، وعبرةٌ عند الأذكياء، أعني ما اختصوا به عن الجماهير والدهماء من فنون العقائد والآراء، هذا مع حكاية مذهبهم على وجهه، ليتبين هؤلاء الملاحدة تقليدياً، اتفاق كل مرموق من الأوائل والأواخر على الإيمان بالله واليوم الآخر^(١).

وما بالنا نذهب بعيداً وعنوان الكتاب نفسه ينطق بما نريد أن نقوله، ولقد أخذ الدكتور سليمان دنيا على الغزالي مزجه السخرية والسباب بالفكر والفلسفة، قائلًا: "إن السباب ليس فلسفة، ولا يصلح أن يكون لوناً من ألوانها، حتى ولو على سبيل المجاز، ومع ذلك وقع فيه هذان الفيلسوفان"^(٢).

ولكن عذر الغزالي أنه جاء فوجد الفلسفة تطلُّ على المجتمع من علو وتهاجم الإسلام، وغاية ما يملكه علماء الكلام أن يردُّوا التهم الموجهة إلى الإسلام، ويبرروا موقفه، ويلتمسوا العذر لعقائده ونظرياته، وغاية ما يملكه الفقهاء أن يحرِّموا دراسة الفلسفة، ويحذروا من الاطلاع عليها.

فكان على الغزالي أن يُنزل الفلسفة من عليائها، بعدما أحاط هؤلاء أنفسهم بهالة من التفخيم والتعظيم، وصاغوا كلامهم عبارات مبهمة مقفلة؛ إحياءً بأنهم يعلمون ما لا يمكن أن يعلمه غيرهم، ويستطيعون ما لا يمكن أن يستطيعه غيرهم، فكان على الغزالي أن يكشف هذا الزيف، ويعرِّي هذا الكبرياء، وكانت السخرية والازدراء بعض وسائله، فهو ليس أكاديمياً بارداً، وإنما هو داعية مجاهد، يجيش قلبه بالعواطف، ويتفجّر فؤاده بالمشاعر،

(١) مقدمة الغزالي لتهاافت الفلاسفة: ص ٦١.

(٢) مقدمة تهاافت التهاافت: ص ٢١.. ويقصد الغزالي وابن رشد.

ويشتعل وجدانه بالانفعال، فأنى لمثله أن تخرج أفكاره في ثوب رخامي بارد، إن الأفكار من مثله طعنات في ميدان، وطلقات في معركة، ونيران في معمعة، فلماذا يؤخذ عليه أن يصوغ فكره في عبارة حادة أو ساخرة، ما دام صحيح الفكر، صادق البرهان، دقيق الاستدلال.

البحث يثبت صدق الغزالي:

يقول أستاذنا الدكتور (محمود قاسم)^(١): "وفيما مضى كنا لا نخفي عجبنا من إلهام الإمام الغزالي في تكفير أبي نصر الفارابي، وابن سينا، مع تسامحه وتساهله مع جميع المقلدين الآخرين، مسلمين أو غير مسلمين، لكن بدأت تخف حدة هذا العجب، ولم نعد نؤمن بأن الفارابي وابن سينا اجتهدوا في التوفيق بين الدين والفلسفة عن رغبة مخصصة، لا من أجل تتويج الدين في نفوس المؤمنين به، وأنهما بعيدان عن منزلة دعاة الباطنية مثلاً، ممن خصهم الغزالي أيضاً بكثير من عنايته".

بأسلحتهم حاربهم:

كان الغزالي أول من دخل على الفلاسفة بيتهم، وهدمه عليهم " ولم يتهور الغزالي في الهجوم على الفلسفة، ولم يكن فيه مقلداً لغيره ولا ضيق التفكير، إنه درس الفلسفة أولاً... وكان يؤمن بأنه لا يقف على فساد نوع من العلوم، من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم،

(١) دراسات في الفلسفة الإسلامية: ص ١٨٦ - ١٨٧.

ثم يزيد عليه ويجاوز درجته، فجدَّ واجتهد في دراستها، ومعرفة حقيقتها وأغوارها، حتى أطلع على منتهى علومهم^(١).

ومن هنا جاء نقده للفلسفة نقدَ الخبير بيواطننا، العليم بمواضع الخلل في مكانها، فزلزلها زلزالاً.

يقول معاصره الإمام القاضي أبو بكر ابن العربي، بعد أن ذكر أن محاولات علماء الإسلام للردِّ على الفلاسفة قبل الغزالي، كانت بلغة غير لغتهم، فلم يفهموها، ونسبوا علماء الإسلام إلى الجهل والعجز، فلما جاء الغزالي "أنتدب للردِّ عليهم بلغتهم، ومكافحتهم بسلاحهم، والنقض عليهم بأدلتهم، فأجاد فيما أفاد، وأبدع في ذلك، كما أراد الله وأراد، وبلغ في فضيحتهم المراد، فأفسد قولهم من قولهم، وذبحهم بمُداهم، فكان من جيد ما أتاه وأحسن ما رواه ورآه فيما يختصون به دون مشاركة أهل البدع لهم كتاباً سماه (تهافت الفلاسفة)، ظهرت فيه مننه، ووضحت في درك المعارف مرتبته، وأبدع في استخراج الأدلة من القرآن، على رسم الترتيب في الوزن الذي شرطوه، على قوانين خمسة بديعة في كتاب سماه (القسطاس)^(٢)".

وإذا كان الغزالي يذبحهم بمُداهم، ويصوِّب أسلحتهم إليهم، أليس ذلك فلسفة. فكيف يقال إنه هدم الفلسفة؟!

(١) أبو الحسن الندوي: رجال الفكر والدعوة، ص: ٢٠٧.

(٢) القاضي أبو بكر ابن العربي: آراء أبي بكر ابن العربي الكلامية: ص ١٠٦.

الفيلسوف يهدم الفلسفة :

كان الغزالي فيلسوفاً وهو يحارب الفلاسفة.. نعم فقد كان عمله هذا عملاً عقلياً محضاً، وبحثاً فكرياً صرفاً، في سبيل الوصول إلى الحقيقة، وهذه هي الفلسفة.

وقديماً زَيْفُ أرسطو نظرية المثل الأفلاطونية، ولم يقل أحد إن عمله هذا ليس فلسفياً، على حين كان يهدم فلسفة أفلاطون، فلماذا الغزالي وحده يقال إنه ضدُّ الفلسفة والفكر، لقد نقض أرسطو نظريةً فلسفيةً لأفلاطون فقالوا فيلسوف، ونقض الغزالي نظريةً فلسفيةً في الإلهيات فقط، فقالوا ضدُّ الفلسفة وضدُّ الفكر وضدُّ العقل.. فلماذا؟

إن "من ينظر إلى الغاية من كتاب التهافت - تلك التي يصوِّرها الغزالي نفسه بأنها انتزاع الثقة من الفلسفة - وراه، لهذا بعيداً من نطاق الفلسفة، فهو مضطر إلى اعتبار وسيلته - تلك التي تقوم على استعراض مناهج الفلاسفة وأدلتهم، استخدام العقل وحده للكشف عن قصورها وعجزها، وضعفها وركتها - عملاً داخلياً في صميم الفلسفة. إنه عمل يمكن تصويره بأنه بحث في طاقة العقل، وهل يمكن أن يكون عملٌ كهذا بعيداً عن مجال الفلسفة؟"^(١).

فهو إذاً لم يقضِ على التفلسف والفلسفة، بل قد ذهب البعض^(٢) "إلى أن الفضل الأكبر لوجود فلسفة القديس توما يعود إلى كتابات الغزالي لا إلى تأليف ابن رُشد، فقد هاجم حجَّة الإسلام الفلسفة، فردَّ عليه الشارح، واستقرَّ مفكري الغرب، فبادروا إلى الرد على الرد..."

(١) سليمان دنيا: مقدمة تهافت الفلاسفة: ص ١.

(٢) الأب بولس مسعد، عن عبدة الشمالي: دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية: ص ٥٥.

هامش رقم ١.

ومن هنا صحَّ لنا أن نقول: ليس صواباً ما ذهب إليه بعضُ الدارسين والباحثين من أن الغزالي قد قضى نهائياً على الفلسفة في المشرق، بل قضى على التقليد في الفلسفة؛ إذ حوّل المقلدون العلوم العقلية الفلسفية إلى علوم نقلية.

أية فلسفة هدمها الغزالي؟

في كل ما تكلمنا عن نقض الغزالي للفلسفة كنا نعني الفلسفة بالمعنى الضيق، الذي أشرنا إليه آنفاً، وهو الآراء والأفكار المجلوبة من فلاسفة اليونان، بل ليست كل هذه الآراء، وإنما يعني ما كان منها في جانب الإلهيات فقط، كما ألمحنا إلى ذلك عند الحديث عن اختيار الغزالي للفرق والطوائف؛ بحثاً عن الحقيقة.

فقد نظر إلى علوم الفلاسفة نظرة الخبير، وقسّمها إلى ستة أقسام: رياضية، ومنطقية، وطبيعية، وإلهية، وسياسية، واعترف صراحة بأن القسم الكبير منها لا علاقة له بالدين نفيًا وإثباتًا، وإنما هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجادتها بعد فهمها ومعرفتها^(١).

وقد وجّه الغزالي سهامَ نقده إلى الذين يرفضون الفلسفة جملةً من غير فحص وتمحيص، ورأى أن في هذا جنائيةً على الدين، من حيث أراد صاحبها الدفاع عنه، وقد عبّر عن ذلك في كتابه (تهافت الفلاسفة) قائلاً:

" وهذا الفن -إشارة إلى العلوم البرهانية- لسنا نخوض في إبطاله؛ إذ لا

(١) راجع من كتب الغزالي (تهافت) ص ٦٦٠. و(المنقذ) ص ١١٣، و(الإحياء) ١/ ٢٢.

يتعلّق به غرض، ومن ظنَّ أن المناظرة في إبطال هذا من الدين، فقد جنى على الدين، وضعف أمره"^(١).

ثم يعلل لهذا الكلام تعليل الأريب الخبير، فيقول: "فإن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية حسابية، لا يبقى معها ريبة، فمن يطّلع عليها ويتحقّق أدلتها، حتى يُخبر بسببها عن وقت الكسوفين وقدرهما، ومدة بقائهما إلى الانجلاء، إذا قيل له: إن هذا على خلاف الشرع، لم يستربّ فيه، وإنما يستريب في الشرع، وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقة أكثر من ضرره ممن يطعن فيه بطريقة، وهو كما قيل: عدوُّ عاقل خير من صديق جاهل"^(٢).
وبهذا يتّضح لكل ذي بصر مدى التجاوز في قول القائلين: إن الغزالي حارب الفلسفة فهدم الفكر، وكبت إبداع العقل.

(١) تهافت الفلاسفة: ص ٦٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، وانظر أيضًا (المنقذ من الضلال) ص ١١٥، والإحياء ٢٢/١.

الفصل الثالث الغزالي والعقل

فيما سبق ظهر لنا أن الغزالي كان دائماً يشدُّ يديه جميعاً على العقل، ولم يتخلَّ عن العقل لحظة فيما عدا تلك الفترة (المرضية) العنيفة، التي أعضلت كما قال عنها، واستمرَّت قرابة الشهرين، ثم (بتعبيره): "شفاه الله منها، وعادت الضرورات العقلية مقبولة"^(١). فلسان حاله فيما كتب وفيما ناظر وفيما أيد، وفيما عارض يقول: لا وسيلة ولا ميزان ولا معيار ولا مقياس إلا العقل.

ولكنه لم يكتفِ بلسان الحال، فقد أفرد العقلَ بحديث خاص، بيَّن فيه منزلته، ومجده وأعلى شأنه، وأثنى على أهل العقل الذين يؤمنون له ويعملون بمقتضاه، وبيَّن منزلته ومكانته من الشرع.

تمجيد للعقل:

في أكثر من كتاب من كتب الغزالي - بعد الخلوة والعزلة - تجد ثناءً وتمجيداً للعقل، ويكفي أن نضعك أمام هذا النص من كتابه (المشكاة)^(٢):

(١) المنقذ من الضلال: ص ٩٢.

(٢) ص ٨ - ١١ .. بتصرف.

”العقل أولى بأن يسمّى نوراً من العين الظاهرة؛ لرفعة قدره عن النقاّض السبع. أما الأولى فهو أن العين لا تبصر نفسها والعقل يُدرك غيره ويُدرك نفسه، ويُدرك صفات نفسه.

والثانية: أن العين لا تبصر ما قرب منها قريباً مفرطاً ولا ما بعد. والعقل عنده يستوي القريب والبعيد، ويعوج في طرفة إلى أعلى السموات رقبياً، وينزل في لحظة إلى تخوم الأرض هُويّاً.

والثالثة: أن العين لا تُدرك ما وراء الحجاب، والعقل يتصرّف في العرش والكرسي، وما وراء حجب السموات، وفي الملاء الأعلى والملكوت، كتصرّف في عالمه الخاص به ومملكته القريبة، أعني بها الخاصة به، بل الحقائق كلها لا تحجب عن العقل.

الرابعة: أن العين تُدرك من الأشياء ظاهرها وسطحها الأعلى دون باطنها، بل قوالبها وصورها، دون حقائقها، والعقل يتغلغل إلى بواطن الأشياء وأسرارها، ويُدرك حقائقها وأرواحها، ويستنبط أسبابها وعللها وحكمها، وأنها ممّ حدثت، وكيف خلقت، ومن كم معنى جمع الشيء وركب، وعلى أي مرتبة في الوجود نزل، وما نسبته إلى سائر مخلوقاته؟

الخامسة: أن العين تبصر بعض الموجودات، إذ تقصر عن جميع المعقولات وعن كثير من المحسوسات، ولا تدرك الأصوات، ولا الروائح والعلوم، والموجودات كلها مجال العقل؛ إذ يدرك هذه الموجودات التي عددناها وما لم نعدّه، وهو الأكثر، فيتصرّف في جميعها ويحكم عليها حكماً يقيناً صادقاً؛ فالأسرار الباطنة عنده ظاهرة، والمعاني عنده جلية، فمن أين للعين الباصرة مساواته في استحقاق اسم النور.

السادسة: أن العين لا تُبصر ما لا نهاية له، والعقل يدرك المعقولات، والمعقولات لا تتصوَّر أن تكون متناهية.

السابعة: أن العين تدرك الكبير صغيراً فترى الشمس في مقدار حجر، والكواكب في صورة دنائير على بساط أزرق، والعقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافاً مضاعفة.

وأنواع غلط البصر كثيرة والعقل منزّه عنها، فأما العقل إذا تجرَّد عن غشاوة الوهم والخيال لم يُتصوَّر أن يغلط، بل يرى الأشياء على ما هي عليه". وإذا لم يكن هذا الذي قاله في (المشكاة) كافياً أو قلت إن هناك من يشكك في نسبة (المشكاة) إليه، فيكفي أن أضع أمامك ما قاله في الإحياء، وهو بالقطع من تأليفه، وهو بالقطع بعد العزلة والخلوّة، فقد عقد الباب السابع من الكتاب الأول من الربع الأول، بعنوان (في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه). قال فيه عن شرف العقل:

"أعلم أن هذا مما لا يحتاج إلى تكلف في إظهاره، ولا سيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل، والعقل منبع العلم، ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة، والنور من الشمس، والرؤية من العين، فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة؟

أو كيف يُستراب فيه، والبهيمة مع قصور تمييزها تحتشم العقل، حتى أن أعظم البهائم بدنأ وأشدها ضراوة وأقواها سطوة، إذا رأى صورة الإنسان احتشمة وهابه؛ لشعوره باستيلائه عليه لما حُصَّ به من إدراك الحيل"^(١).

ثم أردف ذلك بأن (العلم) المستفاد من العقل "سمَّاه الله روحاً ونوراً وحياة،

(١) الإحياء: ٨٣/١.

فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾^(١) وقال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾^(٢)، وحيث ذكر القرآن النور والظلمة، أراد به العلم والجهل، كقوله سبحانه: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(٣).

وقال ﷺ: "أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبِل، فأقبل. ثم قال له: أدبر، فأدبر. ثم قال له عز وجل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم علي منك، بك أأخذ، وبك أعطي، وبك أتيب، وبك أعاقب"^(٤).

وتابع الغزالي استشهاده على شرف العقل ومنزلته، فحشد لذلك طائفة صالحة من الأحاديث النبوية الشريفة، بلغت خمسة عشر حديثاً، ومع أنها لا تخلو من ضعيف، أو لا تسلم كلها، فهذا الصنيع ينطق لا شك بتمجيد الغزالي للعقل، بل ربما يكون ضعف هذه الأحاديث أكثر دلالة على احتفاء الغزالي بالعقل من صحته، من حيث تشوفه لإثبات ذلك بالشرع، وتطلعه لجعل رفعة العقل وتعظيمه أمراً دينياً.

وكان من آخر ما كتب الغزالي كتابه (المستصفى في أصول الفقه) وجاء في مقدمته:

"فقد تناطق قاضي العقل، وهو الحاكم الذي لا يُعزل، وشاهد الشرع المزكى المعدل... والعقل أشرف الأشياء؛ لأنه مركب الديانة، وحامل الأمانة، إذ عرضت على الأرض والجبال والسماء، فأشفقن من حملها، وأبين أن يحملنها غاية الإباء"^(٥).

(١) الشورى: ٥٢.

(٢) الأنعام: ١٢٢.

(٣) البقرة: ٢٥٧.

(٤) الإحياء: ٨٣/١.

(٥) المستصفى: ٣/١.

فهكذا يجعل العقل "مُلزماً" "متبوعاً" "مطاعاً" .. أليس هو القاضي؟
وحكم القضاء نافذ.. أليس هو الحاكم؟ وطاعة الحاكم واجبة..

وكان الغزالي دقيقاً غاية الدقة حين وصفه بأنه "الحاكم الذي لا يعزل"، ثم
هو "شاهد الشرع المزكّي المعدل"، وهل ترد شهادة مثل هذا الشاهد؟

ثم لفت نظرنا أيضاً أن الغزالي، وهو يعرض أدلة الأحكام في (القطب
الثاني) من المستصفى الذي جعله خاصاً بها وتفصيلاً لها، قد عرضها هكذا:
"القطب الثاني في أدلة الأحكام، وهي أربعة:

(١) الكتاب.

(٢) السنة.

(٣) الإجماع.

(٤) دليل العقل.. المقرّر على النفي الأصلي^(١).

وهو بهذا ينفرد عن كل من سبقه من الأئمة في عدّه (العقل) رابع الأدلة،
وكذا عن كل من جاء بعده^(٢) فيما نعلم.

والغزالي بهذا الصنيع لم يخرج على إجماع المسلمين بأنه "لا حاكم إلا
الله" وإنما يعني بعد العقل أصلاً رابعاً أنه السبيل إلى إدراك "براءة العدم
الأصلية" ولذا يشرح هذا الأصل قائلاً: "اعلم أن الأحكام السمعية لا تدرك
بالعقل، لكن دلّ العقل على براءة الذمّة عن الواجبات"^(٣).

(١) المستصفى: ١٠٠/١.

(٢) حاشا ابن قدامة في (روضة الناظر: ١٢٧). ومن المعروف أن كتاب ابن قدامة هذا يكاد يكون
مختصراً للمستصفى.

(٣) المستصفى: ٢١٧/١.

ومع ذلك فلا يخلو صنيع الغزالي هذا من دلالة؛ إذ يبقى له اهتمامه بأمر العقل، ودوره ومجآله.

وحين يتحدّث عن الأخوة والإخاء وما يشترط في الصاحب الذي يؤاخى، يجعل العقل أوّل هذه الشروط، فيقول:

"وعلى الجملة فينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال: أن يكون عاقلاً، حسن الخلق، غير فاسق، ولا مبتدع، ولا حريص على الدنيا"^(١).

هكذا يجعل العقل أوّل الشروط، ثم يفصل هذا الإجمال فيقول: "أما العقل فهو رأس المال، وهو الأصل، فلا خير في صحبة الأحمق.... كيف والأحمق يضرك"^(٢).

"ومما يدلّ على أن تمجيد العقل إحدى الأفكار الراسخة والرئيسية في مذهب الغزالي، أنه يحدد لنا مراتب التصديق الجازم أو الإيمان القاطع في كتابه المعروف (إلجام العوام عن علم الكلام)، فيجعل التصديق أو الإيمان عن طريق البراهين المنطقية أسمى مراتب الإيمان.

فالمكانة الأولى هي إذًا للتصديق الذي ينتهي إليه المرء عن طريق "البرهان المستويّ في شروطه، والمحرر أصوله، ومقدماته درجة درجة، وكلمة كلمة، حتى لا يبقى مجالاً لاحتمال الشك، وذلك هو الغاية القصوى، وربما يتفق ذلك في كل عصر، لواحد أو اثنين، ممن ينتهي إلى تلك الرتبة، وقد يخلو العصر منه" أهـ"^(٣).

(١) الإحياء: ١٧١/٢.

(٢) الإحياء: ١٧١/٢.

(٣) د. محمود قاسم: دراسات في الفلسفة الإسلامية، ص ١٥٧.

وبعد هذا تكون قد وضحت حجّة من جعل الغزالي من الفلاسفة العقليين، يقول الدكتور (سليمان دنيا):

"لو أردنا أن نلخص خلاصة رأيه في العلوم ومصادرها، في كلمة موجزة، لقلنا: إنه من الطائفة المدعوّة الآن بالعقليين، فإنه يقول: العلم هو اليقين العقلي المأخوذ إما من الحسيات - بعد فحص العقل لها، وتفتيشه عن مأخذها، هل هي مستوفية لشروط الإحساس الصحيح أو لا، وإما من البديهيّات - بعد فحص العقل لها، هل سلمت من سلطة الأوهام أو لا، وإما من المتواترات بعد تفتيش العقل واعتماده، وإما من الوجدانيات بعد الفحص العقلي، وإما من التجريبيّات بعد الفحص العقلي، وإما من القضايا الفطرية القياس بعد الفحص العقلي.

فكل ذلك لا ثقة به إلا بعد تفتيش العقل وفحصه، ثم إعطائه الحكم بأنه صحيح أو غير صحيح"^(١).

هكذا العقل حاكم على كل مصادر العلم والمعرفة.

وقد يبدو الغزالي مفرطاً في ثقته بالعقل، حيث يرى "أن العقل إذا تحرّر من غشاوة الوهم والخيال، لم يتصوّر أنه يخلط، بل يرى الأشياء على ما هي عليه"^(٢).

ويعلق على هذا الدكتور (محمود قاسم) قائلاً:

"فهل يحق لنا أن نقرر أن هذا الفيلسوف من أكثر الناس حماسة للمذهب العقلي، في حين أننا نرى أن أكثر الناس تطرفاً في هذا المذهب يفسحون مجالاً

(١) سليمان دنيا: مقدمة معيار العلم، ص ٢٧.

(٢) عن محمود قاسم: دراسات في الفلسفة الإسلامية، ص ١٤٩.

لاحتمال الخطأ، ويعترفون بنسبية العلم وتطوره، ويرون في هذه النسبية دليلاً على حيوية العلم واتجاهه دائماً نحو غاية يقترب منها باطراد، دون أن يصل إليها أبداً^(١).

ولكنه يعود مستدرِكاً لينفي عن الغزالي تهمة الإفراط في الثقة بالعقل، ذلك أنه نفى عن العقل إمكان الغلط بشرط هو السلامة عن الآفات والحجب والأوهام، والغزالي يعترف بأن هذه الشروط لا يمكن أن تتحقق كاملة في أثناء هذه الحياة الدنيا؛ إذ العقل محجوب - في نظره - لا عند العلماء فحسب، بل لدى أهل التصوف أنفسهم^(٢).

فهو إذاً يثق بالعقل ثقة العقلايين من غير إفراط ولا تقريط.

تمجيد لمن يتبعون العقل :

بعد تمجيد الغزالي للعقل وبيان شرفه ومنزلته، وسلطانه، وفضله، نجده يثني على من يتبعون العقل، فيقول في أعظم كتاب ألفه ليناصر به مذهب الأشاعرة وهو (الاقتصاد في الاعتقاد):

"وأما أتباع العقل الصرف، فلا يقوى عليه إلا أولياء الله تعالى، الذين أراهم الحق حقاً وقواهم على اتباعه"^(٣).
هكذا أتباع العقل هم أولياء الله حقاً.

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٥٠ بتصرف.

(٣) عن سليمان دنيا: الحقيقة في نظر الغزالي، ص ٥٤.

الغزالي والتقليد :

رأينا أن الغزالي كان في حملته على الفلسفة والفلاسفة لا يهاجم الفكر الحر، ولا المنهج العلمي، وإنما هاجم تقليد آراء فلاسفة اليونان، والخضوع لها، وعدم عرضها على معيار العقل، وميزان الفكر، وقد كان دائماً ضد التقليد، داعياً إلى نبذه وإطراحه، منادياً بضرورة البحث عن الحق ومعرفته بالحق لا بالرجال، وقد كانت هذه القاعدة هي دستور الذي لم يحد عنه لحظة في خاصة نفسه، ويدعو غيره إليه، فقد وهبه الله نفساً طلعة تواقفة إلى درك الحقائق، متعطشة إلى كنه الأمور، فأنحلت عنه رابطة التقليد، وانكسرت عليه العقائد الموروثة على قُرب عهد من الصبا^(١).

وهو يدعو إلى إنزال المذاهب كلها والآراء الموروثة كلها، ووضعها في موضع النظر والبحث، فليس مع واحد منها دليل يثبت صدقه، فيقول مجيباً من سأله عن أي المذاهب هو الحق:

"... وليس مع واحد منهم معجزة يترجح بها جانبه، فجانب الالتفات إلى المذاهب، واطلب الحق بطريق النظر، لتكون صاحب مذهب، ولا تكن في صورة أعمى تقلد قائداً يُرشدك إلى طريق، وحوالك ألفٌ مثل قائدك ينادون عليه بأنه أهلكك، وأضلك عن سواء السبيل، وستعلم في عاقبة أمرك ظلم قائدك، فلا خلاص إلا في الاستقلال.

خذ ما تراه، ودع شيئاً سمعت به *** في طلعة البدر ما يُغنيك عن زحل

(١) المنقذ من الضلال: ص ٨٩.

ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث، لتتدب للطلب، فناهيك به نفعاً؛ إذ الشكوك هي الموصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال"^(١).

فأي نبذٍ للتقليد وإزراء به أكثر من هذا؟!

ومما أثر عنه أيضاً في هذا الباب قوله: "واعلم يا أخي أنك متى كنت ذاهباً إلى تعرف الحق بالرجال، من غير أن تتكل على بصيرتك، فقد ضلّ سعيك، فإن العالم من الرجال، إنما هو كالشمس أو كالسراج، يعطي الضوء، ثم انظر ببصيرتك، فإن كنت أعمى فما يغني عنك السراج والشمس، فمن عوّل على التقليد هلك هلاكاً مطلقاً"^(٢).

وتجده يزدري المقلّدة ويراهم كالعوام، بل أخطّ منهم شأنًا، فيقول بعد أن وصف سلوك المقلّدة ورفضهم للحق؛ لمجرد معرفتهم أنه ليس من قول المذهب الذي هم عليه:

"... ولست أقول هذا طبع العوامّ، بل طبع أكثر المتوسّمين باسم العلم، فإنهم لم يفارقوا العوامّ في أصل الاعتقاد، بل أضافوا إلى تقليد المذهب تقليد الدليل، فهم في نظرهم (أي بحثهم) لا يطلبون الحق، بل يطلبون طريق الحيلة في نصرة ما اعتقدوه حقاً بالسمع والتقليد، فإن صادفوا في نظرهم ما يؤكد اعتقادهم، قالوا: لقد ظفرنا بالدليل، وإن ظهر لهم ما يضعف مذهبهم قالوا: قد عُرضت لنا شبهة"^(٣).

(١) ميزان العمل: ص ٤٠٩.

(٢) معراج السالكين (عن سليمان دنيا: الحقيقة في نظر الغزالي، ص ٥٤).

(٣) الاقتصاد في الاعتقاد (عن سليمان دنيا: الحقيقة في نظر الغزالي، ص ٥٥).

الغزالي وحرية الفكر:

بكل ما تقدّم من دعوة إلى العقل وتمجيده، وبيان شرفه، وعلوّ منزلته، ومنزلة من يتبعونه، إلى الدعوة إلى نبذ التقليد، والإزاء على المقلدة، والدعوة إلى العلوم العقلية، والهجوم على من يرفض البرهانيات، ويجحد العقليات، بكل ذلك وبيعض ذلك، يكون الغزالي من رجال الفكر الحرّ والرأي الحرّ.

ولكن يبدو أن حرّية الرأي ليس لها مفهوم عند بعضهم إلا في الأطلاق على آراء الخارجين والمارقين والأعداء والمناوئين والملحدين والكافرين.

وبهذا المعنى أيضاً يكون الغزالي من أصحاب حرية الرأي، هذا إن أرادوا الاطلاع ودراستها وتقويمها، فكل ذلك قد كان من الغزالي.

أما إن أرادوا اتباعها وتقليدها والتعبّد لها والانبهار بها، فهذا ما رفضه الغزالي وعابه وحذّر منه وزيفه وبيّن خطله وخطأه.

بل إن الغزالي لم يرفض من هذه الآراء والأفكار والنظريات ما ثبت عنده صدقه وصحته بالدليل والبرهان، مما عرضهُ ﷺ للهجوم والاتهام بأنه يأخذ من علوم المضلين وفتون الجاحدين، فكان نصيبه العداوة من الفريقين. ولكنه ﷺ لم يتخلّ عن دستورهِ (اعرف الحق بالحق)، فأثبت في كتبه ما رآه حقاً من قضايا ومن مصطلحات وردت في كتب الفلاسفة، ولما عابوا ذلك عليه، كان ردّه:

" وهبّ أن هذه لم توجد إلا في كتبهم، فإذا كان ذلك الكلام معقولاً في نفسه، مؤيداً بالبرهان، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة، فلم ينبغي أن يُهجر أو يُنكر؟"^(١)

(١) المنقذ من الضلال: ص ١٢٦.

ثم يتابع كلامه مبيناً خطأ هذا الذي يعترض عليه، وخطر رأيه فيقول:
"فلو فتحنا هذا الباب، وتطرقنا إلى أن يهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل،
لزمنا أن نهجر كثيراً من الحق، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من آيات القرآن
وأخبار الرسول -صلى الله عليه وسلم- وحكايات السلف وكلمات الحكماء
والتصوفية؛ لأن صاحب كتاب (إخوان الصفا) أوردتها في كتابه مستشهداً بها
ومستدرجاً قلوب الحمقى بواسطتها إلى باطله؛ ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج
المبطلون الحق من أيدينا بإيادهم إياه كتبهم"^(١).

فهو باحثٌ عن الحق حيث هو، وعن العلم حيث كان، ولو كان مع الكافرين،
وفي ثنايا أبحاثهم، وتضاعيف كتبهم، لا يردُّه عنه أنه سبق إليه خاطر المبطلين،
فالحكمة ضالة المؤمن وهو أحقُّ بها أُنَى وجدها.

ثم يتابع كلامه مؤكداً إياه بمثال بالغ، وهو أن العسل يظل عسلاً، ولو وضع في
محجمة الحجام، فالصواب صواب والحق حق ولو نطق به الكافرون والمبطلون.
ويضرب مثلاً آخر أبلغ من ذلك، حينما يقول النصراني (لا إله إلا الله
عيسى رسول الله) فهذا قول حق، فهل يرفضه المسلم؛ لأنه جاء على لسان
النصراني؟ إن النصراني ما كفر بهذا، إنما كفر بإنكار نبوة محمد ﷺ لا
بالاعتراف بنبوة عيسى^(٢).

ويعلق أستاذنا الدكتور (محمود قاسم) على كلام الغزالي هذا قائلاً:
"وفي رأينا أن وجهة نظر الغزالي تتفق مع المنهج العلمي السليم، وهي
تتضمن ضرورة الاطلاع على آراء الآخرين، ومحاولة الانتفاع بها، إذا ثبت

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٥ - ١٢٧ بتصرف.

أنها مطابقة للعقل والشرع، فهو لا يريد إذاً الحجرَ على التفكير، ولا يهدف إلى فرض قيود تتقف في سبيله، أو تدعوه إلى التقليد والجمود^(١).

الغزالي ودراسة العلوم:

إن من يتتبع كلام الغزالي بعقلٍ واعٍ ومنهجٍ علمي سليم، لا بهوىٍ وتحامل، ولا يضربُ كتبه بعضها ببعض، يظهر له إيمان الغزالي بالعقل وبالفكر، وبالرأي الحرِّ، وبالمنهج العلمي الصارم، ويراه داعياً لدراسة العلوم، معظماً لشأنها. فهو يدعو إلى العلم، بكل ألوانه وفروعه، وأقسامه، دعوةً عامة، ثم رأينا له لمحات عن بعض العلوم، سجّلنا بعضاً منها، ولم نُحصها إحصاءً. فهو يقول عن علم تشريح الأعضاء:

"ولا يطالع التشريحَ وعجائب منافع الأعضاء مُطالع إلا ويحصل له هذا العلمُ الضروريُّ بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان، لا سيما لبنية الإنسان"^(٢). ثم يدعو إلى الطب والحساب، والزراعة والهندسة، وما لا قوام للحياة دونها من العلوم والحرف، ويجعلها من فروع الكفايات.

ومما قاله في هذا المعنى في (ميزان العمل) تحت عنوان (بيان شرف العقل والعلم والتعليم):

"... والصناعات ثلاثة أقسام:

(١) إما أصول، لا قوام للعالم دونها، وهي أربعة: (الزراعة، والحياكة، والبنائية، والسياسة).

(١) دراسات في الفلسفة الإسلامية: ص ١٤٩.

(٢) المنقذ من الضلال: ص ١١٠.

٢) وإما مهَيِّئة لكل واحدة منها وخدمة لها (كالحدادة للزراعة، والحلاجة، والغزل للحياكة).

٣) وإما متممة لكل واحدة من ذلك ومزينة لها (كالطحانة والخبز للزراعة، والقصار^(١))، والخياطة للحياكة^(٢).

ولعل أظهر ما يدل على رأي الغزالي في دراسة العلوم، دعوته من يتصدى لتفسير القرآن إلى التزوّد بالعلوم (العقلية) المختلفة قبل العلوم الشرعية، حتى يؤدّي أمانة التفسير كاملة.

فإذا قال القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾^(٣) فلا يفسّر هذه الآية التفسير الكامل المراد منها، إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً... إلخ.

وإذا قال سبحانه: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾^(٤) وقال: ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾^(٥) فلا يعرف حقيقة الشمس وسيرها وأبراجها ومنازلها، والقمر ودورانه، وخسوفهما، وولوح الليل في النهار، وكيفية تكوّن أحدهما على الآخر، إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض، وهو علم تنفرّع منه علوم...

(١) تبييض المنسوجات.

(٢) ميزان العمل: ص ٢٢٨ وما بعدها.

(٣) الانفتار: ١-٨.

(٤) الرحمن: ٥.

(٥) يونس: ٥.

ثم يقول الغزالي بعد أمثلة كثيرة شاملة:
" ولو ذهبُ أفصلُ ما تدلُّ عليه آيات القرآن الكريم من تفاصيل وعلوم،
لطال الأمر وتشعب، فتفكر في القرآن والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع
علوم الأولين والآخرين"^(١).

ومن تمجيده للعلوم العقلية ما قاله في (ميزان العمل): " وليس يخفى أن
العلوم العقلية تدرك بالعقل الذي هو أشرف القوى، وبه يتوصل إلى جنّة
المأوى"^(٢).

الغزالي يتوقع المكتشفات العلمية :

فهو يقول: " ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يُتمارى فيها، أن في الإمكان
والقوة أصنافاً من العلوم العجيبة لم تخرج بعد من الوجود، وإن كان في قوة
الآدمي الوصول إليها، وعلوم كانت قد خرجت إلى الوجود واندرست الآن، فلن
يوجد في هذه العصور على وجه الأرض من يعرفها، وعلوم أخرى ليس في قوة
البشر أصلاً إدراكها والإحاطة بها، ويحظى بها بعض الملائكة المقربين"^(٣).

والغزالي بهذا قد تنبأ بالمعارف الإنسانية التي نشاهدها في عصرنا ولم
يشاهدها هو في عصره، والتي ستشاهدها العصور القادمة، ولم نشاهدها
نحن، ونظريته في العلوم المدرسة يشهد بصحتها العلم الحديث والاكتشافات
التاريخية، فقد وُجد لدى قدماء المصريين في مقابرهم من أسرار الكيمياء

(١) عن طه عبد الباقي سرور: الغزالي، ص ١١٤ - ١١٦.

(٢) ميزان العمل: ص ٢٢٠.

(٣) عن طه عبد الباقي سرور: الغزالي، ص ١١٨.

وتحنيط الأجساد والحبوب، وأسرار البناء والفلك ما لم تهتد إليه المعارف الحاضرة.

وينقل الأستاذ (طه عبد الباقي سرور) عن أكثر من واحد من المؤرخين أنهم "أطلعوا على كتاب للغزالي، محفوظ في برلين، بعنوان (رموز القرآن) وأنهم قالوا: إن الغزالي قد أشار في هذا الكتاب إلى الكهرباء والديناميت والهواء الخفيف".

ثم يعقب: "وليس في استطاعتنا أن نؤكد صحة هذه الأشياء، فدليلها مفقود، وآيتها في بطون صفحات لا تزال محجوبة عن الشمس"^(١).

الرياضيات في نظر الغزالي:

كانت الرياضيات فرعاً من فروع الفلسفة، وعلماً من علومها، على عهد الغزالي، فلما علم أن الغزالي هاجم الفلسفة وقضى عليها وكشف عوارها، وأبان تهافتها، ظن من يأخذ العلم عن بعد^(٢) أن الغزالي عدو للفكر، وحرية الفكر، وبالتالي عدو للعلوم التي تقوم على الفكر والنظر المستقيم، وراح الباحثون عن (تكنولوجيا) عصرنا يحملون الغزالي مسؤولية تخلفهم وعجزهم.

لقد قسم الغزالي علوم الفلسفة إلى ستة أقسام، وعد أولها الرياضيات، فماذا قال عن الرياضيات؟

(١) الغزالي: ص ١١٩.

(٢) أخذنا هذا التعبير عن إمام الحرمين شيخ الغزالي، وهو يعيب به المتعجلين في أحكامهم غير المتثبتين في آرائهم.

"أما الرياضية: فتتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم، وليس يتعلّق شيء منها بالأمر الدينيّة نفيّاً وإثباتاً، بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجادتها بعد فهمها ومعرفتها"^(١).

هكذا الرياضة "أمور برهانية لا سبيل إلى مجادتها" ينفي أشدّ النفي أن يجحد أحدُ براهين الرياضيات، وأن يردّ قوانينها، ويرفض نتائجها، هل هناك تقرير وتأكيد لقيمة الرياضيات أكبر من هذا؟ وهل هناك وصف لحقيقة الرياضيات أصدق من هذا؟

ولكن الغزالي المربي المعلّم المصلح الاجتماعي، الفيلسوف، لا تغرّه ظواهر الأمور، فيلتفت إلى خطرٍ آخر ينشأ عن دراسة الرياضيات ليس من الرياضيات في ذاتها، ولكنه من الآثار الجانبية التي (قد) تنشأ عن دراسة الرياضيات، وهذا ما يمكن أن يسمى بـ(الخبرة المصاحبة) في اصطلاح رجال التربية في عصرنا.

نعم تتبّه الغزالي إلى (أعراض جانبية) لدراسة الرياضيات، ونبّه لها، وحذّر منها، وذلك قوله: "وقد تولدت منها آفتان:

الأولى: أن من ينظر فيها يتعجّب من دقائقها، ومن ظهور براهينها، فيحسّن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة، فيحسب أن جميع علومهم في الوضوح، وفي وثاقة البرهان، كهذا العلم، ثم يكون قد سمع من كفرهم، وتعطيلهم وثناونهم بالشرع، ما تداولته الألسنة، فيكفر بالتقليد المحض، ويقول: لو كان الدين حقّاً لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم، فإذا عرف بالتسامح كفرهم وجحدهم، فيستدلّ على أن الحق هو الجحد والإنكار للدين، وكم رأيت من

(١) المنقذ من الضلال: ص١٣.. بتحقيق الشيخ عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، (دون تاريخ).

يُضِلُّ عن الحق بهذا القدر ولا مستند له سواه.

وإذا قيل له: الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً في كل صناعة، فلا يلزم أن يكون الحاذق في الفقه والكلام حاذقاً في الطب، ولا أن يكون الجاهل بالعقلية جاهلاً بالنحو، بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق، وإن كان الحمق والجهل قد يلزمهم في غيرها، فكلام الأوائل في الرياضيات برهاني، وفي الإلهيات تخميني؛ لا يعرف ذلك إلا من جرَّبه وخاض فيه، فهذا إذا قرَّر على هذا الذي أُلْحِدَ بالتقليد، لم يقع منه موقع القبول، بل تحمله غلبة الهوى، والشهوة الباطلة، وحب التكايس، على أن يصرَّ على تحسين الظنِّ بهم في العلوم كلها^(١).

هكذا يدرك المرَبِّي الخبير، هذه الآفة الخفية، ومدى خطريها، وهي آفة نفسية كما ترى، إذ قد يُخدع من يتعلَّم الرياضيات فيظنُّ أن باقي علومهم لا تخطئ، فيصدقهم في الإلهيات قياساً لها على الرياضيات، فما دام هؤلاء يقولون حقاً لا يتخلَّف في جانب الرياضيات، فلماذا يتخلَّف الحق ويجوز عليهم الخطأ في جانب الإلهيات؟ وهو مزلق كما ترى عظيم، وإذا أُريد التنبيه إليه بأن من حدَّق صناعة ومهر فيها، ليس بالضرورة أن يكون حاذقاً في كل صناعة، فهذا التنبيه على وضوحه لا ينفع^١ الذي انخدع بالتقليد، ولا يقع منه موقع القبول، بل تحمله غلبة الهوى وشقوة البطالة، وحب التكايس على أن يصرَّ على تحسين الظنِّ بهم في العلوم كلها^١.

وواضح هنا أنه يرى أن هذه الآفة ليست بلازمة للرياضيات، وليس كل دارس للرياضيات معرضاً لها، وإنما الضعاف المقلدة فقط، وليس كل المقلدة، بل من يغلبه الهوى، ومن يُحب التعالم، أي الأحمق المتكايس.

(١) المنقذ من الضلال، ص ١١٤.. بتحقيق الشيخ عبد الحليم محمود.

ولا يتردد الغزالي في الحكم بمنع تدريس الرياضيات من أجل هذه الآفة فيقول:

"فهذه آفة عظيمة لأجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم، فإنها وإن لم تتعلق بأمر الدين، ولكن لما كانت من مبادئ علومهم، سرى إليه شرهم وشؤمهم، فقل من يخوض فيها إلا وينخلع من الدين وينحل عن رأسه لجام التقوى"^(١).

واعلم أن هناك من سيصيح: وجدتها، ها قد قالها الغزالي بنفسه: "لأجل هذه الآفة يجب زجر كل من يخوض في علم الرياضيات".

وليس حجة الإسلام ممن نزعه هذه التهاويل، بل يلتفت إلى هذه المغالطات، فهو قد عنى صنفاً معيناً من الناس، عندهم الاستعداد للاستهواء، فيهم ضعف التقليد، ويغلبهم الهوى، ويعميهم حب التكايس.

ولعمري إن هذا ماثل للعيان أماننا، فيمن يتعلمون علم الغرب في أي فن من الفنون، ولتكن الرياضيات مثلاً فيعود بعض منهم إلينا وقد انسلخوا من جلودهم وخرجوا من إهابهم، وانبهاراً بعلم القوم وفنونهم، فيأخذون عنهما ما عندهم، ومن هرطقة وتجديف، ومن عادات وتقاليد، بل وذنوب وآثام، يعرفون بالقطع حرمتها في ديننا، ولكنهم يستحلونها، ولسان حالهم يقول: لو كان هذا خطأ أو ضرراً ما ارتكبه هؤلاء المتقدمون الذين سادوا العالم، وبسطوا عليه نفوذهم وحضارتهم.

يقولون هذا بلسان الحال أحياناً، ولسان المقال حيناً، فكم من بعضهم حينما يخاطب في تحليل حلال أو تحريم حرام يقول: كفى تخلفاً، العالم صعد إلى القمر، وأنتم قاعدون تقولون حلال وحرام.

(١) المنقذ من الضلال: ١١٤.

ومعلوم أن منهم من يعاقر الخمر (وهي من المعلوم حرمتها بالضرورة) قائلًا: لو كانت حرامًا، ولو كانت ضارة، لاهتدى إلى ذلك هؤلاء أصحاب العقول الكبيرة الذين اخترعوا كذا وكذا..
هذا واقع مشاهد، وكأن الغزالي يتكلم عنه..

ولكن ليس معنى ذلك أن نزجر من يتعلم الرياضيات بإطلاق، لا نقول نحن ذلك، ولم يقله الغزالي، وإنما مراده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن نختار لهذه العلوم أصحاب القدرة العقلية، والسلامة النفسية، ومن المعلوم أن الدول الواعية التي تحافظ على ذاتيتها، وشخصيتها وفلسفتها، تحدّد مستوى معيناً من النضج العقلي والنمو النفسي والعمر الزمني لأبنائها، عند الابتعاث إلى دول أجنبية للدراسة. إذا علمنا ذلك، فلا محلّ للاعتراض الذي اعترض به أستاذنا الجليل الدكتور (سليمان دنيا) -رحمه الله- وذلك قوله:

"أما الأمر الذي لا نستطيع أن نوافق الغزالي عليه فهو قوله: "فهذه آفة عظيمة يجب لأجلها زجر كل من يخوض في تلك العلوم"; فهذه دعوة إلى الجهل، إذ لا يسوغ لنا أن نمنع من علوم الرياضة كل الناس، إذ ليس كل الناس عرضة للوقوع في أخطار هذه الآفة"^(١).

ومعاذ الله أن يكون حجّة الإسلام "داعية إلى الجهل" وهو الذي أفنى عمره في سبيل الحقيقة، وفي كتاب (ميزان العمل) نفسه الذي كتب الدكتور سليمان دنيا في مقدمته هذا الكلام، نجد الغزالي يتحدّث عن شرف العقل وشرف العلم والتعليم وعن الصناعات^(٢).

(١) من مقدمته لكتاب (ميزان العمل) للغزالي، ص ٦٨.. دار المعارف بمصر، سنة ١٩٦٤م.

(٢) انظر الصفحات ٣٢٨ وما بعدها.

وكلام الدكتور سليمان دنيا في أنه ليس كل الناس معرّضين للوقوع في أخطار هذه الآفة، هو بعينه كلام الغزالي، ومع أن الغزالي استخدم لفظ (كل) فقال: "يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم"، فوضح من سياق كلامه وسباقه أنه لا يقصد (كل) بمعناها، وإنما (كل) من يكون عرضة للوقوع في أخطار هذه الآفة، ومن البداية أن كلام الإنسان يفهم ويفسر في ضوء سياقه وسباقه، ومع كل كلامه في ذات الموضوع.

وكذلك أيضًا لا محلّ للاعتذار الذي قدّمه شيخنا الإمام الدكتور (عبد الحليم محمود) في تعليقه على (المنقذ) إذ قال:

"ولعلّ وضع الرياضيات في أيام الإمام الغزالي كان على غير وضعها الآن، وما من شك في أن الإمام الغزالي -وهو واسع الأفق مستنير- لو عاش بيننا الآن لما قال ذلك" اهـ^(١).

بل يجب علينا نحن أن نقوله الآن، بأوضح مما قاله الغزالي، ولو لم يقله الغزالي، فأوضاعنا الآن في حاجة إلى ألف غزالي.

وقد سُررنا بتوفيق الله حين وقفنا على موافقة كلامنا لما قاله العلامة الداعية الشيخ أبو الحسن الندوي -مدّ الله في عمره- إذ علّق على كلام الغزالي هذا، قائلًا:

"وكأنه بصوّر -وهو يذكر تأثير العلوم الرياضية وردّ فعلها في كثير من ضعاف العقول والمتكاسين في عصره- عقلية النشء الجديد، وكثير من المتعلمين في القرن العشرين، الذين خضعوا لبراعة الأوروبيين في العلوم الطبيعية والاختراعات، ورأوا ما هم عليه من إلحاد وزندقة وتنسُخ خلقي،

(١) المنقذ من الضلال: ص ١١٤ هامش ١٠٠١ مرجع سابق.

فظنوا أنه الطريق الأقوم، وقلدوهم فيه^(١).

ولا يكتفي الغزالي بهذه الآفة وحدها التي تحد من دراسة الرياضيات، وإنما يرى أن وراءها آفةً أخرى، ولكنها ليست من دراسة الرياضيات، وإنما تولدت عن صدق النظريات الرياضية، وسلامة براهينها.

"الآفة الثانية: نشأت من صديق للإسلام جاهل، ظنَّ أن الدين ينبغي أن يُنصر بإنكار كل علم منسوب إليهم: فأنكر جميع علومهم، وأدعى جهلهم فيها، حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع، لم يشكَّ في برهانه، ولكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل، وإنكار البرهان القاطع، فيزداد للفلسفة حباً وللإسلام بغضاً.

ولقد عظم على الدين جناية من ظنَّ أن الإسلام يُنصر بإنكار هذه العلوم، وليس في الشرع تعرُّض لهذه العلوم بالنفي والإثبات، ولا في هذه العلوم تعرُّض للأموال الدينية. وقوله عليه السلام: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى، لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله تعالى وإلى الصلاة"^(٢).

وليس في هذا إنكار علم الحساب المعروف بمسير الشمس والقمر واجتماعهما

(١) أبو الحسن الندوي: رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ص ١٩٠. دار القلم بالكويت، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

(٢) صحيح، رواه مسلم من حديث جابر (٢١/٢ - ٢٢)، وأبو عوانة (٢٧١/٢، ٢٧٢) وأبو داود (١١٧٨) والبيهقي (٢٢٥/٢ - ٢٢٦)، وأحمد (٢١٧/٢ - ٢١٨). إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: محمد ناصر الألباني (١٢٦/٢)، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٩هـ. وراجع هناك لترى صحة كلام الغزالي في أن هذه الزيادة لا وجود لها في الصحاح.

أو مقابلهما على وجه مخصوص، أما قوله عليه السلام: "لكن الله إذا تجلى لشيء خضع له" فليس توجد هذه الزيادة في الصحاح أصلاً^(١).

وواضح هنا أن الخطر أيضاً ليس من جانب الرياضيات في ذاتها، بل من الجهة الذين ينصرون الإسلام بجهلهم فيعيبونه وهم يظنون أنهم يدفعونه عنه كالذبة التي قتلت صاحبها.

ومما يؤسف له أن هذه الآفة موجودة في عالمنا الآن، في صورة رفض للحقائق العلمية، بل والإنجازات الحضارية، فقد سمعنا عمن ينكر كروية الأرض باسم الإسلام، وينكر وصول الإنسان إلى القمر باسم الدين.

(١) المنقذ من الضلال: ص ١١٥.

الفصل الرابع الغزالي والتصوف

كما رأينا طوّف الغزالي في آفاق المعرفة، ما شاء الله له أن يطوّف، ونقّب وراء الفرق والطوائف ما شاء الله له أن ينقّب، ونقر عن طوية المذاهب ما شاء الله له أن ينقر، وانتهى به البحث والتطواف إلى طريق الصوفية، سلوكاً ومعرفة، فرأى أن طريقهم هو الطريق، وأن مكاشفتهم ومشاهدتهم هي العلم. وكان في كل ذلك البحث والتنقيب مدفوعاً بعامل (الدين) لا يعامل (الفكر) فما كان يجري وراءه تعليلاً لظواهر الكون، ولا لكشف معضلة فكرية شغفته، بل كان يبغي البحث عن الطريق الحق الذي يقتضيه ما استقر في قلبه من إيمان بالله تعالى، وبالنبوة وباليوم الآخر^(١).

وإذا كان من حقنا أن نقول ذلك استنتاجاً - وهو صحيح إن شاء الله - فقد وجدناه صريحاً في ثنايا كلامه، إذ يحكي عن أثر خروجه من بغداد، وتفسير الناس لهذا الخروج، فيقول:

" واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة، إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سبباً دينياً، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في

(١) انظر المنقذ من الضلال: ص ١٤١.

الدين، وكان ذلك مبلغهم من العلم"^(١).

فهو يؤكد أن سبب خروجه وعزلته سبب ديني.

ومن هنا كان تصوّف الغزالي هو الطريق الإسلامي، بتوازنه، بين الدنيا والآخرة، بين الروح والمادة، بين القلب والعقل.

ميزان التصوّف عند الغزالي:

وضع الغزالي رحمته الله ميزاناً للتصوّف، يبيّن صحاحه من زائفه، وحقه من باطله، والصادق منه من المدعى. وجاء هذا في كتابه (ميزان العمل) حيث قال:
"أعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل، والمدعى فيه كثير، ونحن نعرفك علامتين تجعلهما أمام عينيك، وتعتبر^(٢) بهما نفسك وغيرك.

فالعلامة الأولى: أن يكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع، موقوفة على حدّ توقيفاته، إيراداً وإصداراً، وإقداماً وإحجاماً؛ إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل، إلا بعد التلبّس بمكارم الشريعة كلها، ولا يمكن ذلك إلا بعد تهذيب الأخلاق - كما وصفنا من قبل - ولا يتوصّل إلى ذلك إلا إذا ترك جملة من المباحات، فكيف يتأتى لمن لم يهجر المحظورات، وهو لن يتوصّل إليه ما لم يواظب على جملة من النوافل، فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض؟
بل الشرع في تكليفه العالم، اقتصر على فرائض ومحظورات يشترك فيها عوام الناس، بحيث لا يؤدي الاشتغال بها إلى خراب العالم.

(١) المصدر السابق: ص ١٤٣.

(٢) أي تقيس بهما نفسك وغيرك.

والسالك في سبيل الله يعرض عن الدنيا إعراضاً، لو ساواه الناس كلهم،
لخرب العالم، فكيف ينال بمجرد الفرائض والواجبات؟
فإن قلت: فهل تنتهي رتبة السالك إلى حد ينحطُّ عنه بعضُ وظائف
العبادات، ولا يضرُّه بعضُ المحظورات، كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل
في هذه الأمور؟ فاعلم أن هذا عين الغرور، وأن المحققين قالوا: لو رأيت إنساناً
يمشي على الماء، وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع، فاعلم أنه شيطان، وهو
الحق" (١).

فهو يؤكِّد أن الالتزام بالشرع التزاماً كاملاً، أول خطوات الطريق، ولا يكون
تصوّف على غير منهاج الشرع.

ثم هو متطوِّبٌ لأثر (الصوفية) بحيث لو التزم بها الناس جميعاً لخرب
العالم، فهل الغزالي يريد هذا؟

إن من يقرأ الغزالي في كتبه (الصوفية) والتي كتبها بعد الخلوة والعزلة،
يجده مشغولاً بمجتمعه، يصف له طريق السلامة من الآفات، ويتحدّث عن
الحِرَف والصناعات، الواجب منها والمندوب، وهو على وعي دائماً بدور
الإنسان في هذه الأرض مستخلفاً من الله لإعمارها والكدح فيها.

ومن هنا نستطيع أن نقول: إنه وإن كان يدعو إلى الصوفية فهو مستيقن
من أن طريقها لا يطيقه كل الناس، فمهما دعا إليه وحثَّ عليه فلن يصل إلى
الاستجابة الكاملة من كل الناس، بل ليس كل من يتخذ الصوفية طريقاً، يصل
فيها إلى نهايتها، والغزالي نفسه خير دليل على ذلك، فقد رأينا بعد عزلته
وتصوّفه يعود لمجتمعه، مشغولاً بالتدريس والتأليف والتربية والوعظ والتزكية،

(١) ميزان العمل: ص ٣٩٩ - ٤٠٠ بتصرف.

بل مشتغلاً بالسياسة (بلغه عصرنا) ناصحاً للحكام، مخوفاً للأمرء، منبهاً إلى الأخطاء، داعياً إلى رفع المظالم.

ولذا فلسنا نقول مع القائلين بأن الغزالي يقرّر أن المتصوّفين فئة خاصّة^(١)، وإنما كل الناس مدعوون إلى الطريق، كي يتمسكوا (بالمنجيات) ويتخلّصوا من (المهلكات) ويسلموا من (الآفات) ثم يعودون إلى ممارسة حياتهم، كما فعل الغزالي.

ومن لم يكتب له الشفاء، فالأولى له وللناس أن يبقى في (المصحّة). ومن قرأ كلام الغزالي عن المتصوّفة^(٢) وغرورهم وأخطائهم و(شطحهم) عرف أي تصوّف يريده الغزالي.

(١) طه عبد الباقي سرور: الغزالي، ص ٦٢.

(٢) على سبيل المثال انظر (الإحياء) ١/٣٦، ٣٧.

الْفَضِيلُ الْخَامِسُ

الغزالي والمجتمع

لقد ظلم أبو حامد حينما اتُّهم بأنه هرب من مجتمعه، وأدار ظهره لقومه وأراد أن ينجو بنفسه، فانسحب إلى معتزله، دعا الناس إلى مثل ما فعل، وما كان رَجُلًا هارِبًا، كيف والهرب سمة الجبناء، وهو الجريء الجسور، ولكنه أعتزل المجتمع ليخلص نفسه، أولاً من آفاته وأدوائه، ثم يشجذ أسلحته، ويتهيأ للمعركة، ثم يعود إلى المجتمع بروح جديدة.

وذلك ما كان.. فقد عاد الغزالي إلى مجتمعه ينفخ فيه من روحه، ويدعوه أن يغيّر من نفسه حتى يغيّر الله ما به، ولم يكن كما زعم الزاعمون صاحب المدرسة التي كانت سبباً في الانحطاط، والتأخر للعالم الإسلامي، بدعوتها إلى الزهد وترغيبها في الفقر، والعقود عن العمل.

كيف هذا؟ والغزالي يقسم الخلق إلى أصناف ثلاثة:

"صنف هم المنهمكون في الدنيا بلا التفات إلى العقبي، إلا باللسان، وحديث النفس، وهم الأكثرون، وقد سُموا في كتاب الله شرّ الدواب.

وصنف مخالفون لهم غاية المخالفة، اعتكفوا بكنه همهم على العقبي، ولم يلتفتوا أصلاً إلى الدنيا وهم النُّسَاك.

وصنف ثالث متوسطون، وفؤا الدارين حقهما، وهم الأفضلون؛ لأن بهم قوام أسباب الدنيا والآخرة، ومنهم عامة الأنبياء.

فالمراعي للدنيا والدين كما يجب، وعلى ما يجب جامعاً بينهما، خليفة الله في أرضه، فإن قلت: قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١)، فاعلم أن مراعاة مصالح العباد من جملة العبادة، بل هي أفضل العبادات، قال عليه السلام: (الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله) "اه"^(٢).

فهذا كلام ناطق بما نريده، لا يحتاج إلى تعليق، فإنه ينص على أن الذين وفؤا الدارين حقهما هم الأفضلون، ثم يعلل الأفضلية، بأن بهم قوام أسباب الدنيا والآخرة، ثم يجعل هؤلاء في أعلى مرتبة، فمنهم عامة الأنبياء، ثم يقول: "إنهم خلفاء الله في أرضه، وأحب خلقه إليه".

وكيف يكون الغزالي داعياً إلى الكسل وترك العمل واعتزال المجتمع وهو الذي يسخر من الفهم الخاطئ لمعنى التوكل فيقول:

"من الخطأ أن يُظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، وكاللحم على الوضم، فهذا ظن الجهال؛ لأنك إن انتظرت أن يخلق الله فيك شيئاً دون الخبز، أو يخلق في الخبز حركة إليك، أو يسخر ملكاً ليمضغه لك، ويوصله إلى معدتك، فقد جهلت سنة الله، وكذلك لو لم تزرع الأرض وطمعت في أن يخلق الله نباتاً بغير بذر... " (٣)

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) عن طه عبد الباقي سرور: الغزالي، ص ١٤١.

(٣) عن طه عبد الباقي سرور: الغزالي، ص ١١٣.

وكيف يكون الغزالي هاربًا من مجتمعه منسحبًا منه، وهو الذي أحاد به
خُبْرًا، ووصف طوائف الخلق وأصنافهم، وعرف دخيلتهم، وكشف أدواءهم
وعللهم، وسهر على علاجهم ووصف الدواء لهم.

إن من يقرأ كلام الغزالي في (الإحياء) يدرك أن هذا ليس كلام فيلسوف
في برج عاجي، ولا كلام صوفي في خلوة منعزلة، وإنما كلام رجل المجتمع،
المصلح الاجتماعي، الذي يعيش هموم مجتمعه، يحدو آماله، ويطلب لآلامه،
كلام رجل خبر هذا المجتمع، وجلس خلاله، وخالط أهله وعایش قومه، فعناه
أمرهم، وشغله حالهم.

كيف يكون الغزالي على ما صورّه هؤلاء، وهو الذي انتقد علماء الدين (وهو
أحدهم) وصاح فيهم كاشفًا نواحي غرورهم، مبيّنًا خطورة فسادهم؟

كيف يكون الغزالي كما قالوا، وهو الذي تصدى للملوك والأمراء والوزراء،
ناصرًا وزاجرًا، ومنددًا بالظلم وأكل الحرام، وأخذ أموال الناس بالباطل؟
اسمع إليه يقول:

"إن أموال السلاطين في عصرنا حرام كلها أو أكثرها، وكيف لا والحلال هو
الصدقات والضيء والغنيمة؟ ولا وجود لها... ولم يبقَ إلا الجزية، وإنها تؤخذ
بأنواع من الظلم ولا يحلُّ أخذها به، فإنهم يجاوزون حدود الشرع في المأخوذ
والمأخوذ منه، والوفاء له بالشروط، ثم إذا نسب ذلك إلى ما ينصبُّ إليهم من
الخراج المضروب على المسلمين ومن المصادرات، والرِّشا، وصنوف الظلم، لم
يبليغ عشر معشار عشيرة"^(١).

وهاجم العلماء الذين يأخذون هباتٍ وعطايا من السلاطين، ذاكرًا ما يؤدي

(١) الإحياء في علوم الدين: ١٣٦/٢.

إلى ذلك من الآفات والإعانة على الظلم والتستر عليه^(١).

وينبغي على العلماء قعودهم عن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح للسلطين، والأمراء والولاة، ويذكّرهم بما كان عليهم سلفهم الأولون، معرّضاً بهم ومقرّعاً إياهم، فيقول:

"فهذه كانت سيرة العلماء، وعاداتهم في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقلة مبالاتهم بسطوة الملوك، لكنهم أتكلوا على فضل الله أن يحرسهم، ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة؛ فلما أخلصوا لله النية أترّ كلامهم في القلوب القاسية، فلينها وأزال قساوتها.

وأما الآن فقد قيّدت الأطماع ألسن العلماء، فسكتوا، وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا، ففساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل؛ فكيف على الملوك والأكابر؟ والله المستعان على كل حال"^(٢).

فهذا كلام ناطق بمعايشة الغزالي لمجتمعه، وإدراكه لمشكلاته، ثم إنه يقول هذا الكلام في كتابه (الإحياء) الذي هو دستور التصوُّف عنده.

معارضته للحكام ومقاومته الظالمين :

لم يكتفِ الغزالي بالقواعد النظرية في معاملة العلماء للسلطين، بل زاد على ذلك أن ذكر سلطين عصره، وحكامه، وتحدّث عن أخطائهم وتجاوزاتهم،

(١) المصدر السابق نفسه : ١٢٩/٢.

(٢) المصدر السابق نفسه : ٣٥٧/٢.

ودعا إلى مقاومة كل ظلم، وردّ كل فساد، ثم لم يكتفِ بذلك -على خطورته- بل زاد عليه أن كتب بقلمه، وموقعاً باسمه إلى الحكام محذراً وذاجراً، فقد كتب للسلطان (سنجر بن ملك شاه) الذي كان يحكم خراسان من أقصاها إلى أقصاها:

"أسفلاً إن رقاب المسلمين كادت تنقض بالمصائب والضرائب، ورقاب خيلك تنقض بالأطواق الذهبية"^(١).

وكتب إلى (محمد بن ملك شاه) -وكان أكبر ملوك عصره- رسالة ذكّره فيها بمسئوليته، وحذّره عقاب الله وغضبه، ولفت نظره إلى إصلاح المملكة^(٢). ومن رسائله في هذا الباب ما كتبه إلى (فخر الملك) وزير سنجر، وقد جاء فيها:

"أعلم أن هذه المدينة (مدينة طوس) أصبحت خراباً بسبب المجاعات والظلم، ولما بلغ الناس توجُّهك من اسفرائن ودامغان خافوا، وبدأ الفلاحون يبيعون الحبوب، واعتذر الظالمون إلى المظلومين واستسمحوهم؛ لما كانوا يتوقعون من إنصاف منك، واستطلاع للأحوال، ونشاط في الإصلاح، أما وقد وصلت إلى طوس، ولم يرَ الناس شيئاً فقد زال الخوف، وعاد الفلاحون والخبازون إلى ما كانوا عليه من الغلاء الفاحش، والاحتكار، وتشجّع الظالمون، وكل من يخبرك من أخبار هذا البلد بخلاف ذلك، فاعلم أنه عدوك.

واعلم أن دعاء أهل طوس بالخير والنشر مجرّب، وقد نصحت للعميد كثيراً، ولكنه لم يقبل النصيحة، وأصبح عبرة للعالمين ونكالا للآخرين.

(١) رسائل الإمام الغزالي بالفارسية (عن أبو الحسن الندوي: رجال الفكر والدعوة، ص ٢٢٧).

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٢٣٨.

اعلم يا فخر الملك! أن هذه الكلمات لازعة مُرّة قاسية، ولا يجزؤ عليها إلا من قطع أمله عن جميع الملوك والأمراء، فاقدرها قدرها، فإنك لا تسمعها من غيري...^(١).

هذه مجرد نماذج لجهاد الغزالي وإصلاحه في هذا الباب وحده، فمن لنا بمثله من فلاسفة العصر والأوان، الذين يزعمون أن مدرسة الغزالي كانت سبب تأخر المسلمين؟!

ثم اقرأ الباب الثالث من كتاب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)^(٢)، تجد حديثاً عجيباً عن المنكرات المألوفة في العادات: منكرات المساجد، منكرات الأسواق، منكرات الشوارع، منكرات الحمامات، منكرات الضيافة، المنكرات العامة، وستدرك أي خبير كان بمجتمعه إمامنا الغزالي، ولا تقضي العجب من هذه الإحاطة بأحوال المجتمع، ومتى حصلها، وخبرها، وعرفها، ذلك العبقرى الصوفي الخطير.

بل إن من اللمسات الاجتماعية العجيبة التي نحن في حاجة إليها ما قاله عن غرور أصحاب الأموال، فعدد فرق المغرورين منهم، وجعل منها:
"فرقة تحرص على إنفاق المال في الحج، فيحجّون مرة بعد أخرى، وربما تركوا جيرانهم جياعاً، ولذلك قال ابن مسعود: في آخر الزمان يكثر الحجاج بلا سبب، يهون عليهم السفر، ويبسط لهم في الرزق، ويرجعون محرومين مسلوبين، يهوي بأحدهم بعيره بين الرمل والقفار، وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه..."^(٣).

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٢٣٩.

(٢) الإحياء: ٢/٢٣٥.

(٣) الإحياء: ٣/٤٠٩. وقرأ كل ما كتبه في هذا الموضوع لترى أننا في حاجة لأن نسمع له، وأن حديثه ينطبق على حالنا الآن بالطبع بأكثر مما كان ينطبق على عصره.

بل نجد الغزالي يصل إلى دخائل القلوب، فيرى أن دارس الطب والحساب والصناعات، وغيرها من المواد العلمية، أو قل العلوم غير الدينية أسلم عافية من دارسي العلوم الدينية، حيث يتعرّضون للاغترار بعلمهم^(١).

والغزالي الذي يجعل دراسة العلوم فرض كفاية، ويضرب مثل بالطب ونحوه مما به قوام الحياة -على حد تعبيره- والذي يقول: "لا يتم الدين إلا بالدنيا"، ويسخر من معاصريه قائلاً: "فكم من بلدة ليس بها طبيب إلا من أهل الذمة... وما ذاك لأن الطب ليس يُتوصّل به إلى تولي الأوقاف"، والذي يقول: "... والمُلك والدين توأمان، فالدين أصل، والسلطان حارس، وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع..."^(٢).

هذا الإمام الجليل الذي هذا بعضُ قوله، كيف يقال (داعية كسل وخمول وسبب تخلف وجمود)؟

نعوذ بالله من الخذلان.

(١) الإحياء: ٢/٣٨٠ - ٤٠٨.

(٢) الإحياء: ١/١٦ - ٢١. وميزان العمل: ص ٢٢٨ وما بعدها.

الخاتمة

وأحسب أن من حقّ البحث علينا أن نسجّل في خاتمته بعض ما عنّ لنا من ملاحظات، وما وصلنا إليه من نتائج:

● إن تاريخنا الفكري ليس بأقلّ تعرّضاً للتشويه، والمسخ، والتزييف، من تاريخنا السياسي، بل إن تشويه التاريخ السياسي -على خطورته- قد يكون أقلّ خطراً من تشويه تاريخ الفكر، حيث تظهر أصابع المشوهين -مهما حاولت الاختفاء- لذوي البصر والبصيرة في جانب التاريخ السياسي، على حين يكون كشفها في جانب التاريخ الفكري، أشدّ صعوبة وأعظم عسراً.

وإن حلقات السلسلة التي رأيناها في مجال تزييف الحكم على الغزالي (سلامة موسى)، (نقولا زيادة)، (أدونيس)، (أنطونيوس كرم) وتنبؤ لا شكّ عن كثير.

● إن آفة الآفات في عصرنا هذا اختزال الأمور واختصارها اختصاراً طائراً سريعاً، وإعطاء أحكام قاطعة دامغة في قضايا خطيرة، تصير كأنها مسلمات أو بدهيات.

وكم من المسلمات التي شاعت في ثقافتنا في حاجة إلى مراجعة وتصحيح، في كل مجالات ثقافتنا، في التاريخ، في الفكر، في الفقه، في تاريخ الأئمة، في الأدب... إلخ، والله المستعان.

● إن داءنا في هذا العصر هو نفس ما شكنا منه الغزالي، فهو داء قديم جديد، هو داء المتكاسين المعالين⁽¹⁾ الذين سلخوا طريق النظر ولم يستكملوا فيه رتبة الاستقلال، وإن كانوا قد ترقوا عن رتبة الجهال، فهم أبداً متشوّفون إلى التكايس، والتعال، وإظهار التفطن لدرك أمور تتخيل العامة بعدها، وينفرون عنها، لا سيما إذا نسب الشيء إلى مشهور بالفضل، فيغلب على الطبع المتشوف إلى التشبه به، فكم من طوائف رأيتهم اعتقدوا محض الكفر تقليداً لأفلاطون وأرسطاطاليس وجماعة من الحكماء قد اشتهروا بالفضل!!

وداعبهم إلى ذلك التقليد، وحب التشبه بالحكماء، التحيز عن معتقدون أنه في الذكاء والفضل دونهم⁽¹⁾.

أليس هذا داؤنا: حب التعال، والتكايس، وإظهار التميز عمّن يظنون أنهم دونهم في الذكاء؟

● إن الغزالي في ضوء ما قدّمناه يعتبر مثلاً للتوازن، الذي يريده الإسلام، للإنسان المسلم في هذه الحياة، حيث يجمع بين الجانب الروحي، والجانب المادي العملي، ويمزج بينهما، فهو يدعو إلى إعمال العقل، بالعلم، فالعمل، فأعمار هذه الحياة الدنيا، ثم كل ذلك يكون وصلة ووسيلة إلى الحياة الآخرة.

(١) الغزالي: فضائح الباطنية: ص ٣٥.

- فالتصوّف عنده لا يكون إلا على منهاج الشريعة، وليس ممن يقول: "إن الحقيقة خلاف الشريعة، أو البديل لها".
 - وهو متفطن دائماً إلى دور الإنسان على هذه الأرض، واستخلاف الله له فيها ليعمرها، ولذلك لا يتردد في أن يعلن أن منهج الصوفية لو اتبعه كل الناس لخرب العالم، وهو -بالقطع- لا يريد للعالم أن يخرب؛ بدليل دعوته الدائمة في كتبه (الصوفية) إلى العلم والعمل، وتذكيره الدائم بأن العلم والصناعات والحرف التي بها قوام العالم من فروض الكفايات، ثم بدليل آخر حيث بيّن -وهو يصنف الناس- أن أفضلهم الصنف الذي وفقى الدارين حقهما، وعمل على إعمار هذه الحياة؛ استجابة لأمر الله، وإحساناً لاستخلافه في الأرض.
 - إن المكاشفة عنده ليست بديلاً للعقل، بل لا يمكن أن يدخل أو يصل إلى أول طريق المكاشفة، إلا بعد تحصيل ما حصله الأولون من العلوم بطريق البحث والنظر والبراهين العقلية.
 - إن الغزالي لم يبتدع طريقاً، ولا يريد للمسلم إلا أن يكون على ما كان عليه السلف الصالح من الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين.
- فإن قيل: إنهم لم يسلكوا طريق المجاهدة، والخلوة والعزلة، والتخلية ثم التحلية، كما وصفه الغزالي، قلنا: نعم، لم يؤثر عنهم ذلك؛ لأنهم كانوا كما قدر الله وقسم لهم، على الحال التي يصل إليها -في النهاية- من يسلك طريق الصوفية كما وصفه الغزالي، فلماذا الطريق إذاً؟؟ أي كانوا أصحاء!! فلماذا الاستشفاء.

● ليس هناك مجال لاعتذار بعض الباحثين^(١) عن الغزالي، بأن كتبه ينبغي أن تُقرأ وتُقد في ضوء معارف عصره، وأن توزن بموازين وقته، ولا توزن بموازين المكتشفات العلمية الحديثة، حيث يُخرج الغزالي من صفوف العلماء والحكماء، أئمة الفكر والابتكار والاختراع؛ لأن العلم عنده طاعة وعبادة، فمن خشى الله فهو عالم، ومن عصاه فهو جاهل.

ليس الغزالي في حاجة إلى هذا الاعتذار، ولا يقبل أن نعتذر عنه بهذا القول، فلو بعث ﷺ الآن لقال ما قال، ولكن رأيه في هؤلاء العلماء والمخترعين هو بعينه الذي قاله في القرن الخامس الهجري؛ ذلك أنه يرى -وهو الحق- العلم والاختراع وسيلة وليس غاية في ذاته، وأن صاحب هذا العلم، وهذا الفكر ما لم يظفر بالطريق السليم، ويظل على وعي دائمًا بأن هذا كله لله وفي سبيل الله، فهو إذاً من الخاسرين، أي من الجاهلين.

ذلك أن "الإنجاز الحضاري في الإسلام إلى غاية أكبر، ويكشف في الوقت ذاته (أخلاقية) لا تجدها في سائر الحضارات، تصدُّه عن استخدام طاقاته وقدراته في غير الطريق الذي تحتمه هذه الغاية الشريفة، البعيدة، التي لا تقف عند حد"^(٢).

وما أصدق قول الغزالي في التعبير عن هذا المعنى: "مهما سمعت أمرًا غريبًا من أمور الدين جحدته أهل الكياسة في سائر العلوم، فلا ينفك جحودهم عن قبوله، إذ محال أن يظفر سالك طريق الشرق بما في الغرب"^(٣).

(١) طه عبد الباقي سرور: الغزالي، ص ١٢٩.

(٢) عماد الدين خليل: حول عادة تشكيل العقل المسلم، ص ١٣٥.

(٣) عن طه عبد الباقي سرور: الغزالي، ص ١٣٠.

حرية الفكر:

ماذا صنع الغزالي حتى يُتهم بأنه ضد الفكر الحر؟ وأنه الذي وأد حرية الفكر؟

ما مفهوم حرية الفكر؟ أليس معناها ومبناها أن يجهر كل صاحب رأي برأيه؟ فماذا صنع الغزالي غير هذا؟ إنه كان صاحب رأي حر، جهر به ولم يخش شيئاً، كان صاحب رأي حر، وفكر مستقل، ومنهج مستقل، في المعرفة، وفي الكون، وفي السلوك، وفي السياسة، وفي الاجتماع.

ناضل في كل هذه الميادين (برأيه الحر) فنازع الفلاسفة، ونازل الفقهاء وهاجم الصوفية، وأبطل الباطنية والتعليمية، وكشف غرور المغرورين بعلمهم، وفضح غرور المغرورين بصلاحتهم وعباداتهم.

كيف يقال: إنه عدو لحرية الرأي؟

هل كان مفروضاً عليه أن ينهزم أمام مناوئيه وأن ينسحب أمام معارضيه، وأن يفشل أمام مخالفيه حتى يقال: إنه رجل الرأي الحر؟

لماذا إذا انهزم الكفر والإلحاد يصرح الصارخون، ويولول المولولون: واحسرتاه، ضاع الرأي وحرية الرأي؟

إنَّ تحيُّز العلماء -مع الأسف- وانحراف المفكرين والدارسين في هذه القضية واضح لا يحتاج إلى بيان، يفعل المعتزلة بمخالفهم الأفاعيل، ومع ذلك لا تجد عليهم نكيراً ولا لائمًا، وتخلع عليهم أوسمة (الفكر الحر) والاتجاه العقلاني و(الاستنارة العقلية).

كيف يقال: إنه عدو لحرية الرأي؟

وهو الذي يحقُّ له أن يشكو من أعداء الرأي، وحرية الرأي.. لقد تعرَّض لهجوم ساحق استُخدم فيه ما يجوز وما لا يجوز من الأسلحة، وأنَّهم بالكفر وبغير الكفر، واستُعدِّي عليه الحكام، وُزِّرت عليه الكتب، وُدِّست عليه الآراء والأفكار في كتبه، فصبر وصابر.

لقد جاهد الغزالي بقلمه، وناضل بلسانه، وقاتل بفكره، لم يكن صاحب تاج وصولجان، ولا صاحب شرطة وجند، وكل ما كان يملكه قلم ورأي.

لم يفعل ما فعله المعتزلة، ولم يفتك بخصومه مثلهم، فلماذا هم دونه أصحاب الرأي الحر، والفكر الحر؟

بل إن القرامطة وجدوا من يصفهم بأنهم تجربة اشتراكية رائدة، وأنهم أصحاب رأي ومنهج وإصلاح.

القرامطة الذين كانوا أول من سنَّ سنة الاغتيال للمخالفين من الزعماء والقادة، ثم قتلوا وقاتلوا، وسفكوا الدماء، وقطعوا الطريق، ونهبوا الحجيج، واستباحوا الأموال والنساء، وقاموا بأبشع مجزرة عرفها التاريخ في حرم الله الآمن يوم التروية، ففتكوا بالطائفتين والعاكفين، ورددوا بئر زمزم بالجثث، وكسروا الحجر الأسود ثم خطفوه، وخلعوا باب الكعبة وميزابها.

هؤلاء الذين فعلوا كل هذا أصحاب فكر حر ورأي حر؛ بل لأنهم فعلوا كل هذا استحقوا أن يسموهم أصحاب رأي حر وفكر حر، إلى آخر ما يصفونهم به من ألقاب التعظيم والتبجيل.

ويأتي حجَّة الإسلام بالرأي الحر والفكر الحر، فلما يفرغ خفافيش الظلام

ويكشف دهاقين الإلحاد، يقولون: "وأد الغزالي حرية الفكر".

يا قومنا: تعالوا إلى كلمة سواء!! بأي شيء وأد الغزالي حرية الفكر؟ هل كان معه سلاح غير الفكر؟

لم لا تقولون الحقيقة؟ إن الفكر المزيف لم يثبت عند النقد، وإن الإلحاد الماكر لم يثبت عن اللقاء.

لقد كان الغزالي (بلغه عصرنا) لو عقل الذين يهاجمونه ويتهمونهم بأنه (سلبي) ضد الفكر الحر والرأي الجريء، وأنه صاحب المدرسة الرجعية التي أدت إلى تخلف العالم الإسلامي، وانحطاطه.

كان الغزالي (ثائرًا) بالمفهوم الصحيح للثورة، أعني (التغيير)، كان الغزالي (ثائرًا) ولكنه لم يكن (انقلابيًا)، كان ثائرًا بغية التغيير، ولا يعنيه (الاستبدال)، كان ثائرًا يعنيه تغيير النفوس لا استبدال الأشخاص، كان الغزالي مؤمنًا حقًا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١). كان الغزالي ثائرًا ولكنها ثورة العلماء الربانيين، لا ثورة الانقلابيين الاستغلايين.

ومن عجب أن هذا الإمام العظيم الذي دعا الأمة إلى أن تستخدم عقلها ولا تستعير عقل غيرها، وأن تفكر لنفسها ولا يفكر لها غيرها، وأن تستخدم أسلوبها ولا تعتمد على أسلوب غيرها، وأن تنطق بلسانها ولا تتمم بلسان غيرها.

(١) الرعد: ١١.

ومن عجب أن هذا الإمام الذي دعا إلى الفكر الأصيل والعقل المستتير والذهن المستقل، يوصم بأنه عدو العقل مثبِّط للفكر.

وقد كان الغزالي موفِّقاً كل التوفيق، وصادقاً كل الصدق، ودقيقاً كل الدقة، حينما سمَّى كتابه (إحياء علوم الدين)، فالإحياء هو إعادة الروح إلى الجسم، فقد كانت علوم الدين موجودة قبل الغزالي وأيام الغزالي، ولكنها كانت جامدة بلا روح، فقدت الغاية، فقدت الإخلاص الذي يُبغى به وجه الله.

وهذا هو الذي تنبَّه إليه الغزالي، فكل هذه العلوم، وكل هاتيك المؤلفات، وكل هذه المصنفات، ما لم يلحظ في إنشائها وبنائها، أنها لغاية بعدها، أنها طريق يوصل إلى النجاح والآخرة، فلا معنى لها ولا قيمة لها، وتكون جسداً بلا روح، وهذا ما أدركه الغزالي، فعمل على إحيائها.

ما أشبه الليلة بالبارحة :

كلما لاحت فرصة وظهرت فرجة أمام التيار الإسلامي، فسُمع صوته وظهر رأيه وسطع نوره، يفتضح أمر المخرقين الكذابين من (المتمرسين) و(المغريين) و(المتغريين)، ولذا يصرخون: هاكم التطرف، احذروا المتطرفين، ولا يزالون يدعون أنصار الإسلام وأصحاب الفكر الإسلامي دعاً، حتى يكتموا أصواتهم، فتتوتر الأعصاب، وتتور النفوس، وتغلي الدماء في عروقهم، ويندفع بعض المتهورين، لبعض الأخطاء، وعندها يصيح الصائحون بالويل والثبور وعطائم الأمور.

ولو أن حرية الفكر حقيقية، ولو أن الرأي حر حقاً، لترك لأصحاب القلم الإسلامي والرأي الإسلامي والفكر الإسلامي والمنبر الإسلامي مجال ومكان، وعندها سنقبل النتيجة للإسلاميين أو عليهم.

أما أن يكون شعارهم الحرية كل الحرية للمتمركسين والمتغربين ولا حرية لغير المتمركسين والمتغربين! فهذا شأنهم، لكن ما أظن عاقلاً يسمي هذه حرية رأي.

وبقي أن نقول أخيراً:

كان الغزالي يخطئ ويصيب، وكل بشر يخطئ ويصيب إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم. ورضي الله عن إمامنا الغزالي، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وعفا الله عن الحاسدين والحاquدين عليه في القديم، والماكرين والمتطاولين عليه في الحديث.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المصادر والمراجع

أولاً مؤلفات الإمام الغزالي :

- (١) إحياء علوم الدين.
- المكتبة التجارية الكبرى، مصر (دون تاريخ).
- (٢) الاقتصاد في الاعتقاد.
- مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر (١٢٨٥هـ - ١٩٦٦م).
- (٣) تهافت الفلاسفة.
- (تحقيق الدكتور/ سليمان دنيا - رحمه الله - دار المعارف بمصر، (دون تاريخ).
- (٤) فضائح الباطنية.
- (بتحقيق الدكتور/ عبد الرحمن بدوي). المتحدة للتوزيع - بيروت (١٢٨٣هـ - ١٩٦٤م).
- (٥) القسطاس المستقيم.
- (بتحقيق الأب فيكتور شلحت اليسوعي). الطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٩م.
- (٦) المستصفى.
- المطبعة الأميرية ببولاق، ١٣٢٢هـ.

- (٧) المشكاة.
- (ضمن مجموعة رسائل للغزالي بعنوان: القصور العوالي). مكتبة الجندي، بالحسين، بمصر، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
- (٨) معيار العلم.
- دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٤م.
- (٩) المنقذ من الضلال.
- (بتحقيق الدكتور/ عبد الحليم محمود). دار الكتب الحديثة، بعابدين بالقاهرة، (دون تاريخ).
- (١٠) ميزان العمل.
- (بتحقيق الدكتور / سليمان دنيا - رحمه الله -) دار المعارف، بمصر، ١٩٦٤م.

ثانياً: مصادر ومراجع:

- ابن رشد: القاضي أبو الوليد محمد بن رشد (الحفيد).
- (١١) تهافت التهافت.
- (بتحقيق وتقديم الدكتور/ سليمان دنيا) دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م.
- القاضي أبو بكر ابن العربي (بتحقيق د. عمار طالبي).
- (١٢) آراء أبي بكر ابن العربي الكلامية (العواصم من القواصم).
- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١م.
- أبو الحسن الندوي - العلامة الداعية - فخر القارة الهندية.
- (١٣) رجال الفكر والدعوة في الإسلام.
- دار القلم، الكويت، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

- أبو الوفا الغنيمي التفتازاني.
- (١٤) مدخل إلى التصوف الإسلامي.
- دار الثقافة، بالفجالة، بالقاهرة، ١٩٧٩م.
- د. أنطونيوس كرم.
- (١٥) العرب أمام تحديات التكنولوجيا.
- سلسلة شهرية تصدر عن المجلس الوطني للثقافة بالكويت، رقم (٥٩) محرم/ صفر ١٤٠٢، نوفمبر ١٩٨٢.
- الإسنوي: جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن.
- (١٦) طبقات الشافعية.
- (بتحقيق الدكتور/ عبد الله الجيوري). ديوان الأوقاف بالعراق، بغداد، ١٣٩٩هـ.
- الحارث بن أسعد المحاسبي أبو عبد الله.
- (١٧) رسالة المسترشدين.
- (بتحقيق الشيخ/ عبد الفتاح أبو غدة). مكتب المطبوعات الإسلامية، بحلب، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- د. حسام الأتوسي.
- (١٨) دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي.
- المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- د. حسن أحمد محمود، وآخر..
- (١٩) العالم الإسلامي في العصر العباسي.
- دار الفكر العربي بالقاهرة، ١٩٨٠م.
- رينولد أنيكولسون.

- ٢٠) في التصوف الإسلامي وتاريخه (ترجمة أبو العلا عفيفي).
- لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.
- الدكتور/ سليمان دنيا رحمه الله.
- ٢١) التفكير الفلسفي الإسلامي.
- مكتبة الخانجي بمصر، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م. توزيع مكتبة الرشاد بالدار البيضاء، المغرب.
- ٢٢) الحقيقة في نظر الغزالي.
- دار المعارف بمصر، ١٩٧١م.
- طه عبد الباقي سرور.
- ٢٣) الغزالي.. سلسلة (اقرأ) رقم ٣١..
- دار المعارف بمصر، ديسمبر ١٩٥٥م.
- د. عبد الرحمن بدوي.
- ٢٤) مؤلفات الغزالي..
- وكالة المطبوعات، بالكويت، سنة ١٩٧٧م.
- د. عبد الحليم محمود.. الأستاذ الأكبر.
- ٢٥) التفكير الفلسفي في الإسلام..
- مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة، ١٩٦٤م.
- د. عبد العظيم الديب.
- ٢٦) الغزالي وأصول الفقه.
- (بحث منشور بالكتاب التذكاري) بعنوان (الإمام الغزالي - الذكرى المئوية التاسعة لوفاته). جامعة قطر، الدوحة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- (٢٧) إمام الحرمين (حياته وعصره - آثاره وفكره).
 - دار القلم، الكويت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
 • د. عبد الفتاح عبد الله بركة.
- (٢٨) الإمام الغزالي وتوجيهه الاجتماعي.
 - (بحث ضمن الكتاب التذكاري) بعنوان (الإمام الغزالي - الذكرى المئوية التاسعة لوفاته). جامعة قطر، الدوحة، ١٤٠٦ - ١٩٨٦م.
 (٢٩) في التصوف والأخلاق.
 - دار القلم، الكويت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
 • إمام الحرمين الجويني، عبد الملك عبد الله بن يوسف.
- (٣٠) الغيathi
 - (بتحقيق د. عبد العظيم الديب).
 - مكتبة وهبة، دار التراث، القاهرة، ١٤٠١هـ.
 • د. عبده الشمالي.
- (٣١) دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية.
 - دار صادر، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
 • السبكي: تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي.
 (٣٢) طبقات الشافعية الكبرى.
 - (بتحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو)، مطبعة عيسى الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م.
 • د. عماد الدين خليل.

٣٣) حول إعادة تشكيل العقل المسلم.

- سلسلة كتاب الأمة رقم ٤ (سلسلة فضيلة تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية بدولة قطر). الدوحة، رمضان، ١٤٠٣هـ.

• د. محمد علي أبو ريان.

٣٤) تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام..

- دار المعرفة الجامعية، بمصر، الإسكندرية، ١٩٨٢م.

• د. محمود قاسم.

٣٥) الإمام عبد الحميد بن باديس.

- دار المعارف بمصر، ١٩٧٧م.

٣٦) دراسات في الفلسفة الإسلامية.

- دار المعارف، بمصر، ١٩٦٧م.

من أعمال العلامة المحقق

عبد العظيم محمود الديب

رحمه الله تعالى

(1348 - 1431 هـ / 1929 - 2010 م)

أولاً: في التحقيق وأصول الفقه - (من تراث إمام الحرمين
الجويني)

(١) البرهان في أصول الفقه . في مجلدين كبيرين

- طبعة أولى - مطابع الدوحة الحديثة - على نفقة أمير دولة قطر - ١٣٩٩ هـ.
- طبعة ثانية - توزيع دار الأنصار بالقاهرة - ١٤٠١ هـ.
- طبعة ثالثة - إخراج جديد، مع مزيد من التحقيقات والتعليمات - دار الوفاء - بالمنصورة ١٤١٢ هـ .
- طبعة رابعة - دار الوفاء بالمنصورة ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- طبعة خامسة - دار المنهاج للنشر والتوزيع - جدة - (يصدر قريباً إن شاء الله).

(٢) الغياثي (غياث الأمم في التياث الظلم) - من أجل ما كُتب في الفكر
السياسي الإسلامي

- طبعة أولى - مطابع الدوحة الحديثة - على نفقة دولة قطر - ١٤٠٠ هـ.

- طبعة ثانية - القاهرة - توزيع مكتبة وهبة، ودار التراث، ودار الوفاء - ١٤٠١ هـ.
- طبعة ثالثة - جدة - دار المنهاج للنشر والتوزيع - ١٤٣١ هـ.

٣) الدرّة المضية فيما وقع فيه الخلاف بين الشافعية والحنفية

- صدر القسم الأول عن إدارة إحياء التراث الإسلامي بالدوحة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- القسم الثاني (يصدر قريباً إن شاء الله).

٤) نهاية المطلب في دراية المذهب ٢١ مجلد

- طبعة أولى - جدة - دار المنهاج للنشر والتوزيع - ١٤٢٨ هـ.
- طبعة ثانية - مصححة ومزودة - جدة - دار المنهاج للنشر والتوزيع - ١٤٣١ هـ.
- طبعة ثالثة - جدة - دار المنهاج للنشر والتوزيع (يصدر قريباً إن شاء الله).

٥) مسائل عبد الحق بن هارون الصقلي لإمام الحرمين وإجابته عنها. (يصدر قريباً، إن شاء الله).

- ٦) إمام الحرمين: (حياته وعصره)
- طبعة أولى - دار القلم بالكويت - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

(٧) فقه إمام الحرمين (خصائصه وآثاره)

- طبعة أولى - إدارة إحياء التراث الإسلامي بالدوحة - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- طبعة ثانية - دار الوفاء - مصر ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.
- طبعة ثالثة - دار المنهاج - جدة ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.

(٨) رعاية العرف عند إمام الحرمين:

- نشر عام ١٩٨٢ م. حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة قطر - العدد الثاني

(٩) الغزالي وأصول الفقه

- نشر ضمن الكتاب التذكري (الإمام الغزالي) الذي أصدرته جامعة قطر، احتفالاً بالذكرى المؤوية التاسعة لوفاته (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م).

(١٠) العقل عند الأصوليين.

- بحث علمي منهجي يثبت أن ما يتردد في كتب الأصول من أن المعتزلة والشيعة يحكمون العقل، لا أصل له.
- حولية كلية الشريعة - جامعة قطر - العدد الخامس - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.
- طبعة ثانية - دار الوفاء بالمنصورة ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

(١١) العقل عند الإمام الغزالي.

- حولىة كلية الشريعة بجامعة قطر - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

(١٢) الإمام الغزالي كما عرفته.

- قدّم أصل هذا الكتاب إلى ملتقى الفكر الإسلامى الحادى والعشرين بالجزائر (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م).
- طبعة أولى - دار دون - القاهرة - ٢٠١٢ م.

ثانياً: فى التاريخ والثقافة والحضارة (التأليف):

(١٣) أبو القاسم الزهراوى - أوّل طبيب وجراح فى العالم.

وتعتبر هذه أول دراسة عن هذا النابغة، نابغة الطب والإسلام (أعدت سنة ١٩٦٣ م).

- دار الأنصار بالقاهرة - ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- طبعة ثانية - دار القلم بالكويت - ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.
- طبعة ثالثة - دار دون - القاهرة - ٢٠١٢ م.

(١٤) فريضة الله فى الميراث والوصية.

- طبعة أولى - دار الأنصار بالقاهرة - ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.
- طبعة ثانية - دار الأنصار بالقاهرة - ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- طبعة ثالثة - مكتبة الأقصى بالدوحة - قطر - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

١٥) المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي.
• طبعة أولى - سلسلة كتاب الأمة - العدد رقم ٢٧ - ربيع الآخر
١٤١١ هـ.

١٦) نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي:
• طبعة أولى - دار البشير - عمان - الأردن - ١٤١٤ هـ -
١٩٩٤ م.
• طبعة ثانية - توزيع: مكتبة وهبة، دار الوفاء - ١٤١٨ هـ -
١٩٩٧ م.

١٧) الإخوان المسلمون والعمل السري والعنف (قراءة منهجية
علمية).
• طبعة أولى - دار الوفاء - المنصورة - ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦ م.
• طبعة ثانية - دار دون - القاهرة - ٢٠١٢ م.

١٨) ببلوغرافيا كاملة لأعمال المستشرقين في نشر التراث (مع دراسة
تحليلية).
• يصدر قريباً إن شاء الله.

١٩) جنوب السودان وصناعة التأمير ضد ديار الإسلام.
• نشر عام ١٩٦٤ م.
• الطبعة الأولى - دار الأنصار بالقاهرة - ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.
• الطبعة الثانية - مكتبة الأقصى بالدوحة - قطر - ١٤٠٥ هـ -
١٩٨٥ م.

- ٢٠) الرسول - صلى الله عليه وسلم - في بيته.
- أحد بحثين قدما للمؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة (الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ - نوفمبر ١٩٧٩ م).
 - صدر ضمن بحوث المؤتمر - المجلد الخامس - بحث رقم ٤.
 - طبع مستقلاً - دار الوفاء بالمنصورة - ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

- ٢١) جمع السنة وتصنيفها بواسطة الحاسب الآلي:
- قُدِّم للمؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة (الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ - نوفمبر ١٩٧٩ م).
 - صدر ضمن بحوث المؤتمر - المجلد السادس - بحث رقم ٨، (ترجم إلى التركية، بواسطة الدكتور عبدالله أيدنلي أستاذ الحديث بجامعة أتاتورك، ونشرته مجلة ديانة - مارس سنة ١٩٨٤ م).

٢٢) (الكومبيوتر) حافظ عصرنا. (نحو موسوعة شاملة للحديث النبوي الشريف).

- مشروع مفصل لدور الكومبيوتر في إنجاز موسوعة السنة المشرفة، وموسوعة الرجال، والجمع المستقصى للسنة.
- قُدِّم إلى مجلس إدارة مركز بحوث السنة والسيرة بجامعة قطر في ٢٤/٨/١٤٠٣ هـ ١٩٨٣/٦/٥ م، ثم نوقش في المؤتمر العالمي الرابع للسنة والسيرة المنعقد بالأزهر (١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م).
- حولية مركز بحوث السنة والسيرة بجامعة قطر - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- طبع مستقلاً - دار الرسالة ببيروت - ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

٢٣) المستشرقون والتاريخ الإسلامي:

- مؤتمر (المستشرقون والإسلام الأول) بأعظم جرى - الهند - فبراير ١٩٨٢م.
- مجلة البعث الهندية - عدد خاص بأبحاث المؤتمر، رمضان وشوال ١٤٠٢ هـ يوليو وأغسطس ١٩٨٢م.

٢٤) لغة القرآن... ماذا يراد بها؟

- ملتقى الفكر الإسلامي الثامن عشر بالجزائر - ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م مع مقدمة عن الصحوة الإسلامية والغزو الثقافي.
- نشر ضمن أبحاث المؤتمر.

٢٥) الزبير بن العوام (الثروة والثورة)

- بحث نموذجي لما نرجوه وندعو إليه من تحقيق أخبار التاريخ الإسلامي.
- حولية كلية الشريعة - جامعة قطر - العدد الثالث - ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م.
- طبعة أولى - مكتبة ابن تيمية بالبحرين - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

٢٦) المستشرقون والتراث.

- بحث منهجي إحصائي عن قيمة عمل المستشرقين بالتراث.
- حولية كلية الشريعة - جامعة قطر - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.
- طبعة أولى - مكتبة ابن تيمية بالبحرين - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.
- طبعة ثانية - دار الوفاء بالمنصورة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

• طبعة ثالثة - دار الوفاء بالمنصورة ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م.

(٢٧) المنهج عند المسترقين.

- قُدِّم إلى ندوة (البحث العلمي في الدراسات الإسلامية).
- كلية الدعوة - طرابلس - ليبيا - يوليو ١٩٨٩ م.
- نشر بحولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة قطر - ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م.

(٢٨) الحوار والتعددية في الفكر الإسلامي.

- حولية كلية الشريعة بجامعة قطر - ١٤١١ هـ - ١٩٩٩ م.
- طبعة أولى - دار الوفاء بمصر - رقم ٢٠-١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

(٢٩) التبعية الثقافية (وسائلها ومظاهرها).

- قدم إلى ندوة الثقافة العربية - الواقع وآفاق المستقبل - الدوحة - قطر - شوال ١٤١٣ هـ - إبريل ١٩٩٣ م.
- طبعة أولى - دار الوفاء - مصر - رقم ١٩-١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

(٣٠) علم اختلاف الفقهاء المفهوم - الاسباب - النشأة - المنهج.

- ندوة تدريس القانون واحتياجات المجتمع القطري - شعبان ١٤١٦ هـ ديسمبر ١٩٩٥ م.

(٣١) من أخبار يزيد بن معاوية: تمحيص وتدقيق وإنصاف.

- مجلة مركز بحوث السنة والسيره - العدد التاسع ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.

٣٢) من التصحيف والتحريف.

- مجلة آفاق التراث والتربية - مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث - العدد السادس عشر - شوال سنة ١٤١٧ هـ فبراير ١٩٩٧ م.

٣٣) من أخبار عثمان مع أبي ذر: تمحيص وإنصاف.

- (يصدر قريباً).

الفهرس

٧ تحية وتقدير

الفصل الأول

الغزالي بحر مغلاق

- ١٥
١٩ تهمةٌ ولا دليل:
٢٢ شنشنة أعرفها من أخزم:
٢٧ المكاشفة عند الغزالي:
٣٥ حقيقة المكاشفة:
٣٧ هل المكاشفة بديل العقل؟

الفصل الثاني

الغزالي والفلسفة والفلاسفة

- ٤١
٤١ ماذا نعني بالفلسفة؟
٤٦ البحث يثبت صدق الغزالي:
٤٦ بأسلحتهم حاربهم:
٤٨ الفيلسوف يهدم الفلسفة:
٤٩ أية فلسفةٍ هدمها الغزالي؟

الفصل الثالث

الغزالي والعقل

- ٥١ - تمجيد للعقل:
- ٥١ - تمجيد لمن يتبعون العقل:
- ٥٨ - الغزالي والتقليد:
- ٦١ - الغزالي وحرية الفكر:
- ٦٣ - الغزالي ودراسة العلوم:
- ٦٥ - الغزالي يتوقع المكتشفات العلمية:
- ٦٦ - الرياضيات في نظر الغزالي:

الفصل الرابع

الغزالي والتصوف

- ٧٥ - ميزان التصوف عند الغزالي:
- ٧٦ - ميزان التصوف عند الغزالي:

الفصل الخامس

الغزالي والمجتمع

- ٧٩ - معارضته للحكام ومقاومته الظالمين:
- ٨٢ - معارضته للحكام ومقاومته الظالمين:

الخاتمة

- ٨٧ - حرية الفكر:
- ٩١ - ما أشبه الليلة بالبارحة:
- ٩٤ - المصادر والمراجع:
- ٩٧ - أولاً مؤلفات الإمام الغزالي:
- ٩٧ - ثانياً: مصادر ومراجع:
- ٩٨ - ثانياً: مصادر ومراجع:

صديقنا قارئ هذا الكتاب..

قبل أن تغلق الكتاب دعنا نتفق على عدة أشياء، واثقون من أنها سترضيك.. دعنا نتفق على أن القراءة درّة أنعم الله بها علينا، ووهبنا إياها، تلك اللذة المميزة -والتي لم يمنحها للبعض- وهي لذة الاستمتاع بالقراءة.. نحن نقرأ ونتعلم، نقرأ ونُخبر حكايات الآخرين، نقرأ ونختصر خبرات العالم في بضع صفحات، نقرأ ونتفق، نقرأ ونختلف، نقرأ ونقرأ ونقرأ...
لكن الأكيد! أننا نقرأ ونستمتع..
لذلك،،،

لا تدع تلك اللذة النادرة تقف عندك، لا تدع هذا الكتاب يتوقف بين يديك -بعد الانتهاء منه- فهناك الكثيرون ممن لم يقرأوه، أو لا يمتلكون ثمنه، أو من لم يسمعوا عن هذا الكتاب.. خبرهم عن تلك اللذة الشائقة، والمتعة النادرة التي لا يعلمونها.
مرر هذا الكتاب إلى أهل بيتك، صديقك، جارك، زميلك في العمل، أو حتى شخص ما في المواصلات العامة لم تره من قبل!
كن سبيلاً في إسعاد الآخرين بهذا الكتاب، ولا تتعجب عندما تجد كتاباً لم تقرأه من قبل يأتيك من أحدهم وهو يخبرك بدوره عن متعة القراءة بعد ذلك بحين من الزمن.

دار دُون

